تأملات



بقلم

أحمد حسين

منشورات المكتبة العصرية
بيروت - صيدا

- ١ -

مرضي

لم يبق لي الا أن أتأمل ، فأنا اليوم عاجز عن الرجـوع الـى الكتب والمراجع ونقل النصوص ، فلم يبق لي كما قلت الا أن اتأمل واجتر الأفكار والذكريات والمعلومات ومن نعمة الله على ان حفظ لي عقلي فهو الشيء الوحيد الذي نجا من هذه المحنة •

واني ارفع هذه التأملات الى ربي وخالقي واذا كان فيها ما لا يرضاه وما أكون قد اخطأت فيه فهو أول من يعرف عذري وهو المرض • واذا كان الانسان أو بالأحرى عقل الانسان يبحث دائما عن الحكمة في أي عمل في هذه الدنيا فلست أتصور حكمة فيما أصابني الا أن تكون الرغبة الالهية في ان ازداد تجربة وخبرة بطبيعة الحياة ومن هنا نشأت فكرة كتابة هذه التأملات فما جدوى الخبرة والتجربة اذا لم توضع على الورق وهـذه هي مأساة الحياة ، فنحن نستفيد ونتسلى ونرفه عـن أنفسنا بمطالعـة بؤس الآخرين وآلامهم حتى ولو ذرفنا الدموع ، فهذه الدموع نفسها هي سبيل الترفيه عن أنفسنا ، وأيا كان ما نتصوره توجعا للآخرين فهو مصدر سعادة لنا ، اننا لسنا المنكوبين •

ان قصة مرضي جديرة أن تسجل ليستفيد منها الباحثون في الطب فهم يقولون انه لا توجد حالتان من حالات الشلل تتشابه وهي جديرة ان تسجل لفائدة من يحيطون بمن ينكب بهذا المرض في مرحلته الاولى عندما ينجـو المريض من الموت ويقدر له الحياة ، ولكنه يكون حيا حياة يفضلها الموت ، لقد كان من حولي يقومون بحركات يقصدون بها اراحتي كأن يضعوا ذراعي

على وسادة فكأنهم كانوا يضعوا يدي فوق سيخ محمى بالنار وهكذا ، كما يجب ان يسجل مرضي ليعرف كل من هو سليم نعمة الله عليه لمجرد أنه يروح ويجيء ويتكلم • وأول ملاحظة أسوقها على مرضي انني كنت سليما معافى في أتم صحة وكنت أعزف عن الأطباء وكنت أنصح دائما بعدم استعمال الأدوية وكثيرا ما كنت أشعر بالخجل ازاء بعض من أحبهم عندما كانوا يمرضون وأرى نفسي جم النشاط والحيويه • ولم تكن هذه النعمة الالهيه تغيب لحظة واحدة عن ذهني ، فقد كنت دائم الحمد لله ولساني لا يكف عن الحمد ، وقد حدثتني زوجتي الحبيبة ان الشلل عندما كان يدب الي ويزحف عضوا بعد عضو لم أكن أكف عن حمد الله حتى تعطل اللسان بدوره ودخلت في الغيبوبه وأنا أسجل ذلك ليكون مفهوما انني كنت من عباد الله الشاكرين وهذا ما جعلني أرجح ان يكون ما أصابني لأزداد خبرة وتجربة ولأقف على ناحية كنت أجهلها تمام الجهل وهو المرض في عنفوانه وشدته ، لقد أشبه حالي حال من يضع أمواله في البنك لتعمل بالأرباح المركبة• فقد عشت عمري الطويل اتهيب من رؤية (الحقنه) فيقولون انهم اعطوني حقنا بما لا يعد ولا يحصى ، وكنت أجزع من رؤية هذه الاجهزة اللازمة لتغذية المريض من خلال الدم فظللت عديداً من الأيام لا سبيل لابقائي حيا الا عن هذا الطريق ، وكان جسدي يرتعد فزعا عندما أسمع ما يقال عن تغذية مريض من أنفه فعشت عدة أسابيع ولا سبيل لتغذيتي الا بهذا الاسلوب حيث يدخلون أنبوبة مطاطيه الى المعدة من خلال الأنف ويثبتونها على هذا الوضع ويدفعون بالسوائل من خلالها بواسطة ضغطها من خلال حقنه •

ذلك المرض ــ وقاك الله وعافاك ــ يشبه ان يكون اعصارا مدمرا يجتاح كل عضلات الجسم اللازمة لتحريك أي عضو من الاعضاء للقيام بوظيفته • ويظهر ان القلب وهو الاستثناء الوحيد فقد ظل ينبض والا لكانت الوفاة• كما ان الرئتين ظلتا تعملان ما دمت قد ظللت حيا • ويقولون انه مرت علي ايام كانوا يترقبون فيها موتي من لحظة لأخرى واني لأرثي لحال زوجتي المسكينة خلال هذه الأيام ، ولكني لأمر ما لم أمت وبقيت على ظهر الحياة• تقول لي زوجتي ان آخر كلمة قلتها لها قبل ان أغرق في الغيبوبة وقد كانت تبكي « انني لا أشم رائحة موت » كأن للموت رائحة• ولكن هذا ما قلته

وهذا ما كان ولم أتوقف لحظة عن أحلام الموت وكثيرا ما هيأت نفسي للموت • بل وقد تعمدت أن أوقف قلبي لأموت ولست أعرف أكان ذلك مجرد حلم أم أنها كانت محاولة بالفعل ، والمهم ان كل مشاهد الموت قد أحاطت بي وقد كنت أعلم قبل مرضي ان استعمال انبوبة الاوكسجين للمساعدة على التنفس هو آخر علامات الحياة • وما زالت صورة زوج ابنتي (مجد الدين) وهو يحاول ان يخفي عني حقيقة أنبوبة الاوكسجين ولكنني التقمتها باعتبارها النهاية ، على ان نفسي عافتها ولم أحس بها اذ لم تقدم لي جديدا فقد كنت اتنفس بدونها ما دام الله قد شاء لي أن أحيا • وأذكر انه كان يقال دائما أمامي ان آخر ما يحدثهو ان تقايأ المريض دما، وما هو اسوأ من الدم عصيراً بني اللون وتقايأت الدم وما هو أسوأ من الدم ، وراحوا يتهامسون ولكن الموت لم يجيء •

على أنه يحسن بي أن أذكر القصة منذ البداية •

بداية المرض :

بدأت أشعر بدوخة خفيفة استمرت عدة أيام وربما أسابيع ، فقد تصورت أنها قد تكون بسبب (نظارة العينين) وذهبت لطبيب العيون فكشف على نظري وقال ان كل شيء على ما يرام ، وحاولت أن أتناسى الأمر ، وعدت من نزهتي اليومية ذات مساء وكنت معتادا أن أسير حتى كوبري الجامعة وأعود منه وهي مسافة تقربمن كيلومترين وعدت فوجدت صديقي الدكتور الحديدي الذي يقيم في نفس العمارة التي أسكن فيها ، فعن لي أن أعرض عليه حالتي وما أشعر به من الدوخه فقال لي فلنبدأ بقياس ضغط الدم ، وكانت النتيجه أنه رآه ما أذكر ١٨٠ فقال لي انه مرتفع قليلا ومن الخير ان ننزل به الى ١٦٠ أو دون ذلك وكانت حياتي تمضي طبيعية فكنت أحيا كما أعتدت أن أحيا ، وكنت في هذه الفترة مقبلا على انهاء الجزء الأول منكتابي «نبي الانسانية» وكنت أضع اللمسات الأخيرة فيهذا الجزء فما راعني الا أن أجد يدي قد انزلقت بالقلم واذا بي اكتب كلمتين أسفل بعضهما لا متجاورتين ، اصبت بدهشة لما حدث وحرت في تعليله ولكني سرعان ما نسيت الحادث فقد استقامت الكتابة بعد ذلك وطبعا لمتستغرق هذه الحادثة الا أقل من ثانية • وظننت أنها حادث عارض • ثم جاءت

الظاهرة الكبرى للمرض وكنت أجلس مع بعض الضيوف وجاء الاستاذ حامد ابو الخير وكان يحمل (كاميرا) من طراز جديد حيث يمكن تظهير الصورة فور التقاطها وكان معتزا بهذه الآلة الجديدة ويشعر باحتيال كلما أبرز صورة جديدة وفجأة شعرت بيدي اليمنى تتوقف عن الحركة ولساني يكف عن الكلام ، وكان يوجد بالمنزل ساعتئذ الدكتور محسن ابراهيم فأسرع الي واكتشف بطبيعة الحال ما أصبت به وبدأ يستعدلعمل الاجراءات اللازمة في مثل هذه الأحوال ، ولكن شاءت ارادة الله ان تنقشع الأزمة فاذا بي أحرك يدي من جديد وتنحل عقدة لساني فاعتبرت المسألة منتهية ، ورفضت جريا على عادتي التدخل الطبي وكان الدكتور حلمي مراد يقيم في احد المستشفيات بالقرب منا فاتصل به الاطباء وحدثوه عن خطورة حالتي وضرورة اقناعي بالعلاج •

والى هنا تنتهي الوقائع الثابتة في ذهني بكل وضوح وترتيب وتبتديء فترة أخرى تختلط فيها الصور ولا أعرف ايها الحقيقي وأيها الحلم ، وما هو واضح في ذهني الآن وهو حقيقة صورتي وأنا راقد في الفراش ولأمر ما فوجئت بالدكتور محسن يسألني اذا كنت أتلو القرآن ويظهر ان النكبة كانت قد حلت •

وثمة صورة أخرى تتراءى في ذهني وهي صورتي أتحدث وأنا راقد في الفراش مع زوج ابنتي مجد الدين وأحسست كما لو كانتالحركة تعود الي فتقلبت في الفراش وأبديت شيئا من الابتهاج ، ولست أذكر شيئا بعد ذلك • وتحدثني زوجتي انني حاولت على سبيل التشجيع أن أريها انني قادر على الحركة فقمت من الفراش وحاولت المشي ولكني وقعت على الارض ، لكني لا أذكر ذلك وتقول ان الشلل بدأ يزحف على كل أجزاء جسمي حتى تعطلت كلها ، ثم كان هذا الذي وصفته في مستهل هذاالحديث حيث انتهى الأمر بأن دخلت في غيبوبة كاملة ووصل الأمر الى حد أنأوقف الدكتور محمد ابراهيم في لحظة من اللحظات كل الأدوية باعتبارها أنه أصبح لا جدوى منها بعد أن أصبح الامر معلقا بارادة الله حياة أو لا حياة ولكن يوما جاء في أثر يوم والقلب ما يزال ينبض وأحسب أن الاحلام طوال مدة شهر كنت منقطعا فيه عن الدنيا ظلت تراودني ، ومن يدري فربما كان

بعضها ليس احلاما ، ولأمر ما كان ابن سينا يلح على خاطري وآراؤه في طبيعة مرضي وكيفية العلاج منه ، ولعله من المضحك انني كنت أفكر طول الوقت ما الذي اكتبه عن هذا المرض ، وثمة خاطر آخر استولى علي في احلامي وهو شجاري الدائم مع الدكتور محسن ابراهيم حيث كان يحاول ان يساعد على انقاذ حياتي بأي ثمن وانا أناقشه في ان الموت لمثلي خير من حياة أكون فيها عاجزا ، وما زلت أذكر هذه الليلة التي نزفت فيها الدم وكيف كان عليه أن يرقدني على وجهي وقد كانت هذه أقسى آلام أحسست بها على أن الحلم الذي ساد في هذه الأيام هو الشعور بالضياع ورغبتي في الموت ، كم استمرت هذه الفترة ؟ تقول زوجتي أنها استمرت شهرا ، وقد وصفت حالتي وكيف أن كل أجهزة الجسم كانت تعمل بطريقة صناعية فكانت هناك أنابيب مطاطية مثبتة فيّ على الدوام لاستخلاص البول وأنابيب اخرى لتغذيتي وكانت هناك آلة ماصة كابسة لامتصاص اللعاب الذي كان يهدد بخنقي وكان بناتي وازواجهن يتناوبن العمل عليها من حين لآخر . وفي هذه الفترة على ما أظن كانت وسيلتي الوحيدة للاتصال فيمن يحيطون بي هو ان أرمش بعيني أي أغلقهما أو أبقيهما مفتوحتين لاشعارهم بالموافقة وعدم الموافقة ، ولم يصدق الدكتور محمد ابراهيم أن ذلك يحدث بالفعل فقد كان ما اصابني اصابة مخيفة عظيمة أفقدتني كل شيء حتى مجرد الاحساس فلم أكن أحس بألوف الحقن التي أعطيت لي والتي كان بعضها قد جرى بطريقة خطأ فأحدث أوراما وأعطابا ولكنني لم أكن أحس بشيء من هذا ، فلا عجب اذا كان الدكتور محمد ابراهيم لم يصدق انني أفهم وأتفاهم عن طريق عيني ولكنه جرب بنفسه واقتنع . وقد كان أخي عادل هو أول من حاول ان يختبر اذا كنت أستطيع الرؤيا فضلا عن التمييز فأحضر لي وسادة حمراء ثم قال لي هذه لونها ابيض فلم أحرك جفني وراح يستعرض شتى الألوان حتى اذا قال انها حمراء أغلقت عيني أشار على الموافقة .. وهكذا كرر التجربة الى أن ثبت نجاحها ولأمر ما ظل مخي سليما وظل يعمل . فكنت استذكر وأكرر آيات القرآن التي احفظها وكنت أحيانا أردد جدول الضرب ولقد أشرت من قبل كيف ان بعض الاجراءات التي يقوم بها أفراد الاسرة بقصد اراحتي فاذا بهذه الاجراءات تؤدي لي عكس المقصود . من ذلك

على سبيل المثال أنهم أوقفوا جرس التلفون عن ان يدق وكذلك أوقفوا الساعة الدقاقة تصورا منهم ان هذه الاصوات تزعجني مع انها كانت الصلة التي تربطني بما حولي فكان صوت جرس التلفون يسليني وكذلك الساعة فقد كنت لا أنام بالليل وكان صوت الساعة هو الذي يهون علي قطع الوقت، فلما توقفت الساعة ضايقني ذلك كثيرا ولم يكن هناك سبيل لافهامهم ذلك . وتقول زوجتي ان الممرضة التي كانت ترعاني هتفت بها ذات يوم في فرح يشبه الفزع فجاءت زوجتي تعدو فقالت لها انظري لقد حرك رأسه ، ومن حسن الحظ انني حركت رأسي مرة ثانية . فرأتها زوجتي وشاع الخبر وكان فرح وكان سرور . ثم كانت أول كلمة نطقت بها « ماما » تماما كالطفل الصغير والحق أن هذا المرض عاد بي وخاصة في الفترة الاولى الى الطفولة بكل خصائصها ومراحل تطورها ومشاعرها وعليك أن تتصور مثلا أنني كنت أرتعد خوفا من قطة البيت المدللة وأتصور أنها يمكن أن تأكلني فأنا لا اتحرك ولا استطيع الدفاع عن نفسي ولا أستطيع أن أصبح مستنجدا فكنت امتلىء رعبا كلما وقع بصري عليها مع أنهم يحدثونني كيف قبعت هذه القطة على باب حجرتي طوال الأزمة لا تتحرك كأنها أدركت بغريزتها هول النكبة التي ألمت بصاحبها وراحت تشارك الجميع بالقلق والحزن .

وجاء الوعي أخيرا بعد شهر وأدركت اننا في شهر رمضان اذ دوى مدفع الافطار وفي اليوم الثالث وقد تحقق لي اننا في رمضان أشرت الى من حولي ان يتناولوا افطارهم .

ومع الوعي بدأت الآلام آلام من كل صنف وطراز وبدأ الشوط الطويل جدا في طريق العلاج . وأنا أكتب هذه السطور بعد قرابة عامين ترددت فيها على مراكز العلاج في مصر في (العجوزة) حيث مركز التأهيل وفي حمامات حلوان وسافرت الى لندن. وفيما خلا الكتابة التي هي نعمة الله الكبرى علي ، فلا زلت عاجزا عجزا مطلقا عن مباشرة الحياة اليومية العادية تماما كالطفل حيث تباشر له أمه كل حاجاته. ومن هنا كانت صيحتي الاولى كأي طفل « ماما » .

وعلى ذكر الكتابة سأل من حولي الاطباء المختصين ، هل اذا شفي يعود فيكتب ؟ فضحك الطبيب وقال : ان آخر شيء يستطيع عمله هو

الكتابة ، هذا ان استطاع ان يكتب على الاطـلاق ، فلما رأى امـارات الحزن على وجوههم ، أراد أن يسري عنهم فقال لهم : على كل حال يمكن ان يتعلم الكتابة بأسلوب آخر كأن تثبت له قلما في جبهته بطريقة خاصة ثم نعلمه وندربه كيف يكتب برأسه ، وشاءت ارادة الله ان تكون الكتابة هي الشيء الوحيد الذي استطيعه ، وحيث يقف الناس ويمشون ويتكلمون فأنا بعد قرابة العامين لا أقف فضلا عن أن أمشي ، بل لا أستطيع التقلب في الفراش والشيء الوحيد الذي استطيعه هو أن اكتب • وعندي انه لو كان المشي هو قوام حياتي لمشيت ولو كان الكلام كمـا كان سابقـا هو قوام حياتي لتكلمت • ولكن الاحداث التي مرت ببلادنا أخيراً وبالامـة العربية جمعاء ، جعلت نفسي تعاف الكلام وقد كنت قبل مرضي قداعتدت ان أصوم عن الكلام يومين في الاسبوع ، وربما كان هذا هو السبب في تأخري الآن عن الكلام ، وطوال مدة علاجي التي لا تزال مستمرة اتصل بي عشرات الاطباء ، وساعد على علاجي طرز مختلفة من المتخصصين في العلاج ، ومما وعيته وجربته عن هذا المرض ، ان الزمن عنصر ضروري بل هو العنصر الاساسي ، فكم من الحركات التي كان يتمنى المعالجـون أن أقوم بها فكنت أعتذر لأنها كانت تؤلمني جدا ، ثم جاء وقـت أصبحت لا أرتاح الا اذا قمت بهذه الحركات والتدريب الحق والمفيد يبدأ بعد عودة الجسم الى الحركة • فيجب أولا ان توجد القدرة على الوقوف أولا ثـم يتعلم المريض عندئذ كيف يقف • وهكذا يجب ان تعود القدرة على المشي ثم يتعلم المريض كيف يمشي ، والتمرينات مفيدة طول الوقت لأنها تحفظ الدورة الدموية نشطة وتحول دون تيبس الأعضاء ، أما أنها سبيل للشفاء فلا وألف مرة لا •

ووصيتي لمن يصاب بهذا المرض أن يوطد نفسه على الرضاء بما حل به والصبر الجميل • وقد كان كل من يعودني يوصيني بهذا الصبرفكنت أقول لهم واذا لم أصبر فماذا باستطاعتي أن افعل • كان ذلك في البداية ، أما الآن فاني أفهم معنى الصبر ذلك ان الله عز وجل يعاملني في هذاالمرض كما قدر عليّ كل حياتي ، حيث منحني ما نسميه « الستر » فلم أشعر في يوم من الايام بالحرمان أو الخذلان التام في أي موقف من المواقـف

ومنحني أغلى شيء في هذه الدنيا وهو الزوجة الصالحة ، ولكنه في ذات الوقت لم يهيىء لي فرص النجاح الساحق في أي موقف في حياتي وكذلك كان شأنه معي في المرض فقد أبقاني حيا على الرغم مـن عنف الصدمـة ، وحفظ لي كما قلت عقلي وحواسي ، وهي نعمة كبرى احفظها وأشكرها ، ولكنه في نفس الوقت يمنحني الشفاء كما اعتـدت أن أقول (بالقطّارة) بحيث تمضي الشهور تلو الشهور دون أي تقدم ملحوظ ومع ذلكفالتقدم لاينقطع وهكذا بدأت أتعود الصبر حيث نفذ صبر كـل من حولـي ، وأصبحت أشعر بالرضى وأنظر الى الجوانب المشرقة في محنتي فليتعز كل مريض بما أصابني وما أعانيه منذ عامين بغير تقدم ملحوظ . والصبـر والرضى كفيلان بأن يعيدا للانسان توازنه ويستأنف مسيرته كما أفعل أنا اذ اكتب هذا الكتاب .

***

- ٢ -

الحيـــاة ألم

« لقد خلقنا الانسان في كبد »

قرآن كريم

ما تأثرت في حياتي بشيء قدر تأثري بتعاليم بوذا التي بناها كلها على أن الحياة ألم ولقد كان المنطلق الذي أوحى لبوذا بهذا المبدأ هو رؤيتـه لانسان فقير يستجدي وآخر مريض وثالث احنت الشيخوخة ظهره فراح يدب على الأرض وأخيرا انتهى الى رؤية انسان ميت يحملونـه ليوارى التراب فعافت نفسه الامارة والسؤدد وحياة القصور وانطلق يضرب في بيداء الارض باحثا عن الحقيقة وأخيرا خرج على الدنيا بتعاليمه والتـي بناها كلها على ان « الحياة ألم » واذا كان بوذا قد نجح نجاحا منقطـع النظير في تشخيص الداء ، فانه من وجهة نظري قد أخفق فـي تشخيص الدواء فهو قد قرر ان الرغبات كلها ألم وأعظم الرغبـات فحسب وهـو الطموح الى السلطة ، او الى الشهرة ، او الى المال او الى النساء كل ذلك ألم ودعا بوذا الانسان الى التحرر من الرغبات والشهوات كي يقضي على الالم ودعا رهبانه ان لا يكنزوا ذهبا ولا فضة وان لا يهتموا بما يجن به الغد وان لا يحترفوا او يمتهنوا أي حرفة او مهنة وان لا يملكوا من حطام الدنيا الا ثوبا واحدا بسيطا هو هذا الذي يلبسونه وان يكون كل متاعهم من الدنيا (كوزا) وعاء يملأه له المحسنون بالطعام الذي يأكلونه ، وبهذا القدر الضئيل من الرغبات تصور بوذا ان المشكلة قد حلت ، مع ان رغبات الانسـان مهمـا انكمشت وتقلصت فانهـا تحـدث فـي الانسـان نفس الأثر وهو التذبذب بين اليـأس من اشبـاع الحاجـة مهما كانت ضآلتها وبيـن الرجاء في اشباعها ومن هذا التذبذب ينشأ الألم وعبثـا

يمكـــن للانسان التحرر منه ، فهذا الراهب البوذي الذي ينتظرالمحسنين ليملأوا وعاءه بالطعام ، يظل قلقا ومشدودا حتى يمتليء الوعاء •

وعلى أية حال فلا يزال المرض وهنا بالشيخوخـة يتربص بهـذا الراهب البوذي شأنه في ذلك شأن أي انسان آخر وهناك الموت في خاتمة المطاف فالمشكلة مشكلة الحياة لا يحلها اماتة الرغبات أو محاربة الشهوات فالنتيجة في كل الاحوال واحدة وهي انطلاق الحيـاة بسرها الرهيـب بحلوها ومرها بعاليها وسافلها بأبيضها وأسودها ، وكل ذلك هو الحيـاة وبغير ذلك لا تكون حياة ، فلو كانت كلها حلوة ، كما لو كانت كلها مرة ، أو لو كانت كلها بيضاء أو كلها سوداء أو كلها رفع أو كلها خفض لبطلت ان تكون حياة • وعلى وجه التحقيق لو لم يكن ألم المرض لما عرفنا لـذة الصحة ، ولولا ألم الجوع لما تذوقنا لذة الطعام وهكذا ومن هنا قالوا : وبضدها تتميز الأشياء فالذي يريـد أن يقضي على الألم فهـو يقضي في نفس الوقت على السعادة • ولقد عشت في الحياة بالطول والعرض فلم أر انسانا واحـدا لا يتطلـع لما ليس في حوزتـه فاذا صـار الشيء في حوزته فقد قيمته وانتقل الانسان الى التطلع من جديد الى ما ليس فـي حوزته • حتى الزهاد والمتعبدين والخاشعين فانهم يتطلعون الى ما ليس في أيديهم وهو الجنة الموعودة أيا كان تصورهم لهذه الجنة ، ولقد أصبحـت لا أكاد أرى فارقا بين أي حالة وأخرى • فالذين يعيشون في مجتمعـات شيوعية يرون السعادة كل السعادة في التخلص من الشيوعية والذيـــن يعيشون في مجتمعات رأسمالية يتمنون الحياة في مجتمع شيوعـــي • ولقد عشنا في ظل الاحتلال الانجليزي فتصورنا اننا لو تحررنا منـــه لأصبحنا سعداء ولكن الاحتلال زال والشقاء زاد وأصبحنا تتطلع صوب الماضي وتتحسر عليه وهذا هو شأن الكائـن الحي يتضجر دائما مـن حالته الراهنة ولا يستطيع ان يقدرها بل ويتذوقها الا بعد أن تصبح تاريخا ماضيا ، وهذا ما يجعلني أتصور ان ليس هناك ما يبعث الغبطة بحق في نفس الانسان ــ أي انسان ــ الا أمس الذاهب أي الذكريات أيا كان نوع هذه الذكريات حلوة كانت أو مرة فأيام الشقاء والبؤس والألـم الشديد تصبح حلوة بمجرد انتهائها ومصدر حلاوتها هو شعور الانسان بـــأنـه

أصبح في منجاة منها وانه تخطاها واجتازها وكذلك الذكريات السارة اذ يتمنى الانسان تكرارها وهكذا تبعث الذكريات الغبطة في نفوسنا بعكس الحاضر الذي لا يمكن الا أن يكون مبعث ألم أو على الأقل قلق وان يكون الحاضر مبعث ألم مفهوم عندما يعاني الانسان شتى صنوف المعاناة ، أما الاحساس بالقلق فهو الذي يحتاج الى توضيح والمسألة هي عندما يكون الحاضر (لاذا) أي مبهجا وساراً ، فانه يكون باعثا للقلق ، فهناك الخوف من انتهاء هذا الحاضر اللاذ وهناك الخوف مما قد يحدثه من رد فعل غير سار أو غير لاذ وهناك أولا وأخيرا ما أشرنا اليه من انفتاح شهية الانسان وطلبه المزيد دائما بغير نهاية . وهناك الطموح المتصاعد . فبمجرد أن يحقق الانسان غرضا تنفسح امامه الاغراض الى ما لا نهاية فليس الا في الماضي ما يجد الانسان ما يبعث الغبطة في نفسه ، والعجيب ان الأمم في ذلك كالافراد فهي تعتز دائما بهذا الماضي أيا كانت صورته لانه مضى وانقضى وأصبحت الأمة في منجاة مما قد يكون فيه من بؤس وشقاء وويلات ، ومبعث غبطة بما فيه من صور وتجارب مشرقة والقاعدة وراء ذلك كله واحدة وهو تطلع الانسان كل انسان لما ليس في يده . وقد أصبحت أسخر مما يسمونه تقدم وتأخر ، فليس هناك سوى نوع واحد من الحياة مليء بالألم على اختلاف صوره من حرمان وامراض وقلق وخوف من المجهول وتعطش لما ليس في يد الانسان يستوي في ذلك البشر الذين يعيشون عراة في وسط أفريقيا والذين يصعدون القمر في أمريكا . ومن هنا تلخصت الحكمة كل الحكمة في القناعة والرضاء ، واذا كان في هذه الدنيا قبس من الراحة وهدوء النفس فهو يتمثل في هذه الحقيقة وهي الرضاء بما تأتي به المقادير أي القدرية . وهي نعمة كانت شعوب الشرق تتمتع بها اذا كانوا يتسلون ويتعزون فيما يحل بهم من مصائب ونكبات أنها مقدورة عليهم ولا فكاك لهم منها ويتطلعون الى حياة اخرى مقبلة لا ألم فيها ، فجاء الغربيون يسلبونهم هذا النعيم بدعوى التقدم ، فانسلخ الشرقيون من معتقداتهم القديمة وتعلقوا بأذيال التقدم ، فلا هم تقدموا ولا هم ظلوا في نعيمهم . وهناك حكاية طريفة تصور احوال هذه الدنيا وكيف انها سراب ووهم ، فقد التقى انسان فقير جاهل ضعيف

بملك الملوك على هذه الارض (لعله كان الاسكندر) فسأل الانســـان التافه الحقير ملك الملوك ، أي شيء فوقك ويعلوك فغضب ملــك الملوك من هذا السؤال وقال : لا شيء . فأجاب الانسانالتافه : وأنا لا شيء فأنا فوقك . قد يتصور البعض أن هذه نكتة ، ولكنها تنطوي على الحقيقة . فقد يتخيل الناس كل الناس ان ملك الملوك ، أو اعظم العظماء أو اغنـــى الاغنياء أو اشهر المشاهير انه غارق في السعادة ، وانه لا يعرف الألم ، مع انهم لو اقتربوا منه لرأوه انسانا يتألم كأي انسان آخر ، وقد تعرض لــه بعض الآلام الجسمانية أو النفسية ما تجعــله يتمنى المــوت في أكثر من موقف وأكثر من مناسبة ، وما دام كل كائن حي الى ممات فكل جهديبذله هو مسخر ومدفوع اليه بقوة مجهولة ، تماما كما تفعل النملة أو النحلة أو العنكبوت ولا شيء زيادة . وكل تصور غير ذلك فهو وهم يسلي بــه الانسان نفسه . وحسبنا ان ننظر الى المجتمعات التي بلغت في نظـــر الشرقيين أعلى مستوى من التقــدم ، كدول أوربا الغربيــة وأمريكا من ناحية وروسيا من الناحية الاخرى ، فلو أنك عشت في هذه البلاد لمـــا وجدت انسانا واحدا راض بما هو عليــه . ومـــا من انسان يملك كل ما يريد ويحصل على ما يريد ، من عنده المال يشكو لانعدام الولــد . ومن عنــده الولد يشكو قلة المال . ومن عنده بنت يريــد أن يكون عنــده صبي ومن عنده المال والولد تنقصه الصحة ومن عنده المال والولد والصحة ينقصه العلم واذا تكاملت هذه الاشياء عند انسان افتقد السلطة . وهكذا يظل أبدا شاعرا بالحرمان من شيء ما وبالتالي يتألم . ان أكثر المجتمعات رقيا ماديا كما يقولون ليست كذلك الا بالمقارنة لمجتمعات أخرى ولكنك لو عشت فيها لسمعت نفس الشكاوي التي تسمعها في أي مكان آخر بل وزيادة تتناسب مع درجة الرقي المزعوم الذي وصلوا اليه ، يدل على ذلك أنه توجد في الولايات المتحدة أكبر نسبة من الانتحار في العالم ، ومـــن الجنون، ومن الجرائم، بقدر يتناسب مع ما وصلوا اليه منالتقدم والرقي ودعك من الحديث عما يعانيه الامريكان ككل من الحــرب الفيتناميــة ، والتمييز العنصري وهكذا ، وكثيرا ما نقول انهم وصلوا الى القمر وهذا العمل على ضخامته يعود بالانسان مرة آخرى بالشعور بتفاهته بل وتفاهة

الكوكب الأرضي كله ، اذ يصبح بمثابة ذرة هائمة في هذا الكون اللانهائي وحسبنا ان نعلم ان المسافات في هذا الفضاء الخارجي تحسب بالسنين الضوئية ، ولكي تعرف ماذا تعنيه السنة الضوئية فعليك أن تعرف أن ضوء الشمس التي تبعد عنا بضعا وتسعين مليون كيلومترا، يصل الينا في سبع دقائق أو يزيد قليلا فعليك أن تتصور ماذا يعني أن نقول : أن هذا الجرم السماوي أو ذاك يبعد عنا (كذا) سنة ضوئية ، إن الرأس لتدور عندما تحاول أن تتصور هذا البعد ، ولكن هكذا يقولون بلغة العلم • ولست أقول هذا لادعو بعدم الوصول الى القمر • فالانسان مدفوع دفعا لهذا الوصول تماما كالنملة والنحلة وأي اسراب طير تهاجر من قارة الى أخرى ولكني أقوله لابين ان الصعود الى القمر لا يحل مشكلة، واحدة من مشاكل الحياة التي ستبقى على حالها ألم ومعاناة • لقد عايشت قصة الصعود الى القمر وكيف كانت حلما وأملا كبيرا وما زلت أذكر كيف حبست الانسانية كلها أنفاسها تطلعا وشوقا لتحقق المعجزة ،فلما وصل الانسان الى القمر وتكرر الوصول ، لم تعد الرحلة تثير اهتماما، وبدأ الناس يتساءلون وما جدوى الصعود الى القمر ، ولكنهم سيصعدون الى القمر والى ما وراء القمر وتظل الحياة منطلقة بما فيها من غموض واسرار ومشاكل وقبل ذلك وبعد ذلك بما فيها من ألم وموت في خاتمة المطاف •

* * *

-٣-

كل شيء في كل شيء

انتهت طبيعة العصر الى التخصص وحبس كل صاحب تخصص نفسه في تخصصه فانتهت النظرة الكلية التي لا بد منها لفهم الطبيعة في مجموعها فأعظم العلماء المشتغلين بالذرة أو بسفن الفضاء قد يصلون الى أعظم قدر من العلم في تخصصهم ومع ذلك فهم لا يعدون ان يكونوا صناعا أو حرفيين كأسلافهم في كل عصر وزمان مع فارق التطور بطبيعة الحال • ذلك ان العلم ــ ذروة العلم ــ هو النظرة الكلية للطبيعة ومحاولة تفسيرها في كمالها وهو ما تكفلت به الأديان •

ولكن ماذا يصرف جمهرة العلماء الاوربيين والامريكان عن الدين غرقوا في تخصصاتهم ، تاركين النظرة الكلية للاشياء للادباء والفنانين والشعراء •

ما الذي يعنيه الترانزستور :

لقد اصبحوا ينتجون أجهزة الترانزستور ويعرفون النظريات التي يقوم عليها وظل حجم الترانزستور يصغر الى أن أصبح في حجم الكف ، بل الى ما دون ذلك ، ولكن أحداً من العلماء لم يحاول ان يقف امام الترانزستور ويحاول أن يتأمل ما الذي يعنيه هذا الترانزستور وذلك هربا من عناء التفكير والتأمل الذي لا جدوى منه ، وقد كان مثل هذا التفكير ممكنا في الماضي حيث يرد كل شيء معجز الى الله ، فيطمئن القلب ويستكين العقل • أما بعد ان اخرج العلماء الغربيون الله من قاموس العلم ، فقد اصبحوا يهربون من التفكير •

والآن فلننظر ما الذي يعنيه الترانزستور ، هذا جهاز كما قلنا أصغر من كف اليد ولو انك فتحته لما وقع نظرك الا على بضع اسلاك ، تتصل ببلورات الترانزستور ومع ذلك فيكفي ان تحرك المؤشر لكي تسمع الاصوات المنبعثة من أي ركن في العالم فيه جهاز ارسال أي محطة اذاعة

وهذا يعني ان كمية الهواء الضئيلة التي تحيط بالترانزستور فيها جميع الأصوات التي تنبعث من جميع محطات العالم ، وهكذا الشأن في أي مكان يوضع هذا الترانزستور في جوف الصحراء أو في أحشاء البحر أو في الفضاء الخارجي ، ومعنى هذا ان كل الاصوات المنبعثة من أي ركن في الارض يمكن سماعها في أي شبر من الارض أو السماء ومثل ذلك يقال عن الصور وجميع المرئيات فهي تنقل الآن من سفن الفضاء الى كل مكان على سطح الارض فيه جهاز استقبال ، ومرة أخرى هذا يعني انتشار المرئيات في أي ركن من أركان العالم الى سائر أجزائه ومن المسموعات والمرئيات ، الى المشحومات فان الكلب يستطيع أن يشم رائحة أي جسم وان يتبع الرائحة عدة كيلو مترات وهم يقولون ان معنى الرائحة هي انبعاث جزئيات من الجسم تحمل رائحته ومعنى هذا ان أي جسم يشع جزئيات منه هي التي تجعل له هذه الرائحة الخاصة ،وحيوانات الغابة تتبع فرائسها عشرات الكيلومترات مستهدية بهذه الرائحة ولو عني الانسان بالتقاط الروائح واذاعتها لثبت انها كالاصوات والمرئيات مثبوتة في كل مكان .

والآن فلننظر للموضوع من زاوية أخرى ستؤدي بنا الى نفس النتيجة هل تعرف ماذا يعني انك ترى الشيء أي شيء ما . كانوا قديما يتصورون ان العين ترسل شعاعا يرتطم بالجسم فينعكس عليه ويعود ثانية الى العين فترى الشيء ولكنهم في العصر العلمي الحديث ، صححوا هذا النظر ، فقالوا بل ان أي جسم يشع اشعاعات هي التي تجعل العين تراه[1] ويكون معنى ذلك انك عندما تنظر الى السماء في ليلة صافية فترى القمر والنجوم والكواكب فان هذا يعني ان أي كوكب ونجم وقمر في هذا الفضاء اللانهائي قد شع اشعاعات من كل سطحه وهي التي وصلت الى العين واستقرت على شبكتها فتمت عملية الابصار وان ذلك كله قد مر خلال قرنية العين التي لا تتجاوز في مسطحها مساحةحبة عدس وهكذا، أي أن هذا الكون اللانهائي ليتقلص ويتركز فيما هو دون الشعرة وبعد

(١) كان عالم عربي هو أول من قال بهذه الحقيقة (ابن الهيثم) .

ذلك فان العقل هو الذي يعيد نشر ذلك وتسطيحه وتربيعه وتكعيبه وتدويره حتى يبدو الكون بأبعاده وأعماقه اللانهائية .

وعندما يتطاير رذاذ الماء في ليلة مقمرة فان هذا الرذاذ يضيء ومعنى ذلك انه يعكس ضوء القمر ، أي ان كل قطرة ماء يمكن أن ينعكس عليها صورة الكون كله ، وقد بيّنا ان الانعكاس معناه التقاط الأشعة المنبعثة من الاجسام ، ويكون معنى ذلك ان أصغر قطرة ماء من محيطات المياه الشاسعة الواسعة بحيث تغمر ثلاثة ارباع مساحة الكرة الارضية أو قطرات الامطار الهابطة ابدا من الفضاء الخارجي ، تستطيع أي قطرة ماء ان تستوعب كل صورة الكون الذي نراه .

الذرة والخليه الحيه :

ولنركز لك الموضوع في حقيقة علمية ثابتة فهم يقولون ان تركيب الذرة من حيث هي نواة تدور حولها كهارب (ايلكترونات) تشبه تكوين المجموعة الشمسية ، ونسب الاحجام والمسافات بين اجزائها المختلفة ،هي نفس النسب بين حجم الشمس وحجم وأبعاد توابعها التي تدور حولها أي أن الذرة أي ذرة هي مجموعة شمسية مصغرة أو بالأحرى مركزة وكذلك الشأن بالنسبة لأي خلية حية فهي على صغرها وضآلة حجمها بحيث لا يمكن أن ترى بالعين المجردة ولا بد لرؤيتها من المجاهر التي تكبر عشرات الألوف من المرات ، ومع ذلك فان هذه الخلية تحمل كل خصائص الكائن من حركة وتنفس وتغذية بل وعقل وفكر ، وقد تنبثق من هذه الخلية أضخم الأجسام وأكبرها وأقواها وأجملها حاملا نفس الخصائص التي كانت من الكائن الحي الذي أفرز هذه الخلية كالتكوين العام لنوع الكائن انسانا أو حيوانا ، فان كان انسانا جاء لون الجلد ونوع الشعر ولونه ولون العين وقوة العقل ، وكل ذلك من خلية واحدة لا يمكن رؤيتها بالعين كما قدمنا ، فعلام يدل ذلك كله ؟ يدل على حقيقة لا يستطيع العقل الا أن يقربها دون أن يستوعبها وهي أن كل شيء في أي شيء ، فعندما تقول الأديان أن الله في كل مكان أو بالاحرى كل شيء فهي تلخص هذا المشاهد والملحوظ وهو الذي يتملكنا الدوار عندما

نحاول ان نفكر فيه ونستوعبه ولذلك هرب علماء العصر الحديث عـن تأمله وعكفوا على تخصصاتهم سواء في الضوء أو الصوت أو الكهرباء أو الحياة يدرسونها ويتعمقون في دراستها متجاهلين ان هذه كلها أعراض لحقيقة واحدة وهي ان كل شيء في أي شيء ، وان الطبيعة واحـدة لا تعرف صغيرا أو كبيراً انها هي هي في كل شيء وفي كل مكان .

* * *

- ٤ -

هل للكون وجود

خارج أذهاننا

سيبدو السؤال غريبا بالنسبة للقراء وأنا نفسي أتردد في الاجابة بالنفي ومع ذلك فهذا هو ما سوف أصل اليه بعد تحليل وتسجيل بعض الحقائق المتفق عليها ، ومهما اقتنع القارىء بالحقائق التي سأسردها عليه فسيظل وجدانه ينكر ان لا يكون لهذا الكون وجود الا في اذهاننا ، وهم يــرون بأعينهم ويلمسون بأيديهم ، ويقيسون ويزنون ويكيلون ويقطعون ويريقون الدماء وينسفون البيوت ، ويدكون المدن فكيف لا يكون ذلك كله الا في اذهاننا ؟ ان المادة والايمان بالمادة هو ما أصبح دين القرن العشرين السائد، وليست هناك حقيقة في هذا الكون سوى المادة، ومع علمي بذلك فما زلت اتساءل هل لهذا الكون من وجود الا في اذهاننا ؟

وأبادر فأقول ألسنا في أحلامنا نرى حيــاة كاملــة ونروح ونجيء ونشط ، ثم نكتشف ان ذلك كله ليس الا حلما ، بل وقد يحدث أن نحلم أننا نحلم ثم نستيقظ في الحلم نفسه بينما نكون لا نزال غارقين في النوم وليس ذلك الا مجرد لفتة صغيرة لاخفف وقع صدمة التساؤل : هل لهذا الكون وجود خارج أذهاننا ؟

صورة الكــون من صنع الانسان :

على أن ثمة حقيقة لا أتردد في تسجيلها وهي ان صورة الكون كما نتحدث عنها ــ وقد تعارفنا عليها ــ هي من صنع الانسان بلا جدال أو شبهة، ولولا الانسان ما كان الكون على هذه الصورة التي هو عليها بكل قوانينه ونظرياته ، فالانسان هو الذي يستنبط هذه القوانين يوما بعد يوم ويغير فيها ويبدل ويحور وفي كل مرة يجزم بأن ما تكشف له هو قانون الطبيعة

ثم يصل الى عكس ما قرره بالامس جازما ان آخر ما يقول به هو قانـون الطبيعة وهكذا دواليك •

الكـون الملـون :

والآن فلندخل في صميم بحثنا ، اننا نرى الكون ملونا حولنا بشتى ألوان الطيف فهل هذه الالوان الا شيئا في أذهاننا ؟ هل تعرف الطبيعـة شيئا اسمه أحمر أو اسمه أزرق ، ان آخر معطيات العلم ان أمواج الضوء ذات ذبذبات مختلفة وهذه الذبذبة المعينة لكل لون هي التي تميزه عن اللون الآخر ، وهي التي تمكن الذهن الانساني السليم ان يسبغ على كل شـيء في الطبيعة لونا خاصا به شريطة أن تكون العينان سويتان وفي حالة جيدة والا فالمصابون بعمى الالوان لا يرون ما نراه من الألوان والذين يولدون عميانا لا يصبح للكون عندهم صورة مرئية فضلا عن ملونة ، ويتحـول الكون بالنسبة لهم الى مجموعة من الاصوات والمشمومات والمحسوسات فاذا فقد الأعمى جهاز السمع ، أو بالاحرى يولد فاقدا حاستي البصـر والسمع فان الكون كمرئيات وأصوات يصبح لا وجود له عنده ، وهكذا عندما يفقد الانسان مختلف حواسه ، فان الكون من زاوية هذه الحاسـة يصبح معدوما بالنسبة له • ولننتقل من الانسان الى الحيوان ومن الحيوان الـى النبات ومن النبات الى الجماد ، ما هي صورة الكون بالنسبـة لهذه الكائنات ؟ لا شك ان صورة الكون بالنسبة للحيوان — كل حيوان — هي شيء مختلف كل الاختلاف عن صورته في ذهن الانسان ، ونحن نجزم ونقطع بأن ليس للكون صورة عنـد النبات فضـلا عـن الجمـادات ، وهي مسألة لا نستطيع فيها أن نقول ما نقول الا تعسفا باعتبارنا أسيـاد هذا الكون وما نقول به أيا كان ما نقوله هو عنوان الحقيقة ، ولكنـي ما دمت انسانا فمن حقي أن أتخيل وأتصور وما دام النبات يتفاعل مـع الحرارة والرطوبة والأسمـدة ، فالكون بالنسبة له مـاء وطين وحرارة وهـواء •

كـل انسان لـه عالمه :

واستطيع ان أقول على سبيل القطع واليقين ولست أظن أن احـدا

يماري في ذلك ،ان كل انسان كائنا ما كان له عالمه الخاص وتصوره لهذا العالم واحساسه به وتفاعله معه فالذي يعيش وسط الغابات والحيوانات له عالم يختلف كل الاختلاف عن ساكن مدينة مثل لندن أوباريس أونيويورك وفي البيئة الواحدة يختلف عالم قصير النظر عن عالم طويل النظر عن عالم فاقد البصر عن عالم الأصم والأخرس ، ويختلف عالم الطفل عن عالم الشيخ وعالم العالم عن عالم الجاهل ، وعالم المؤمن المتدين عن عالم المادي الملحد ، لقد قابلت أناسا ينكرون ان الانسان صعد الى القمر بالفعل ، بل وينكرون امكانية ذلك في يوم من الايام وليس يعنيهم ان ترتج الدنيا بنبأ الصعود الى القمر فعندهم ان كل ذلك تخرصات وأكاذيب وان اجمع العالم على تأكيدها ففي عالمهم الخاص بهم لا يصعد الانسان الى القمر ومثل هذا القول فضلا عن استحالته فهو كفر صراح ، ان لهم عالمهم الخاص .

نسبية كل شيء :

بقي أن نشير الى انه لا يوجد شيء في هذه الدنيا الا منسوبا الى الانسان ، وكل مفاهيمنا وكل مدركاتنا لا معنى لها الا لأن الانسان اتفق عليها على هذه الصورة . المكاييل ، الموازين ، المقاسات ، كلها من صنع الانسان ، ولا معنى لها الا في نظر الانسان ، قاس الانسان بذراعه وبقدمه ثم قاس بالامتار والكيلو مترات والاميال ثم بسرعة الصوت وبسرعة الضوء ، ثم أصبح يتشدق ان بعض النجوم تبعد عنا مائة سنة ضوئية والف سنة ومليون سنة ، والعقل لا يستطيع ان يستوعب سنة ضوئية واحدة ، فكيف بمائة سنة وألف سنة ومليون سنة ، اذا علمت ان الضوء ينطلق بسرعة ٣٠٠ الف كيلومتر فيالثانيةالواحدة، أي انه يقطع فيالدقيقة الواحدة ٣٠٠ الف × ٦٠ وفي الساعة الواحدة ٣٠٠ ألف × ٦٠ × ٦٠ فالتحدث عن بعد مقداره سنة ضوئية يؤلف رقما من الكيلو مترات لا تتسع له صفحات هذا الكتاب فكيف بمائة سنة ضوئية ، وبألف سنة وبمليون ؟ فكل حديث عن المسافات والابعاد هو شيء نسبي في ذهن الانسان وقد قرر « اينشتين » ان كل جسم يسير بسرعة الضوء يتلاشى .

وما نقوله عن الأبعاد في هذا الكون يقال مثله عن الكتل والاحجام فهي شيء لا معنى له الا بالنسبة للانسان ، وهناك في الطبيعة اجسام لا يستطيع العقل ان يستوعبها فهم يقولون مثلا ان احد نجوم السماء يساوي في الحجم ملايين المرات حجم الشمس وكل توابعها وهناك من مثل هذا النجم ملايين الملايين ، ومع ذلك فمثل هذا النجم يبدو كنقطة مضيئة في السماء وهكذا ، وكل هذه تقديرات وحسابات من صنع العقل الانساني •

تطور قوانين الطبيعة ذاتها حسب مفاهيم الانسان :

أسمع الآن صياح الصائحين يقول ولكنك حتى الآن لم تزد عن اثبات وجود الكون خارج ذهن الانسان ، ولكنني لم أبدأ بعد نظريتي •

لقد عاش الانسان يتصور هذا الكون على تصورات تشبع حاجاته فاستطاع دائما ان يصوغ قوانين يفرضها على الطبيعة ، فاذا بهذه القوانين تفي بكل أغراضه وتشبع حاجاته وتمكنه من حل كل مشاكل الحياة ، حتى اذا تغيرت حاجات الانسان ، تغيرت قوانين الطبيعة نفسها ، وأصبح هذا قانون من قوانين الطبيعة ، ونقيضه قانون من قوانين الطبيعة كذلك ، فقديما على سبيل المثال قالوا لا يطفو على سطح الماء الا الاجسام الاخف من الماء وعلى هذا الأساس بني كل علم الاقدمين في الاجسام الطافية ، ثم لما لم يعد هذا النظر كافيا لتحقيق أغراض الانسان وحاجاته ، اتجه الانسان الى الحقيقة المضادة ، وشاد أو استخلص قانونا آخر من قوانين الطبيعة مؤداه امكان تعويم الاجسام الاثقل من الماء ، وعلى هذا الاساس راح يبني سفنه الجبارة من الحديد والصلب ، ومثل ذلك قد حدث في الطيران فبعد ان سار الانسان شوطا بعيدا في ان الطيران لا يكون الا للاجسام الأخف من الهواء وقامت صناعة الطيران على هذا الاساس فصنعت البالونات والمناطيد ، ثم لما لم تعد تف هذه النظرية بحاجات الانسان ، حلت النظريات الجديدة فأصبح الطيران للاجسام الاثقل من الهواء ، ثم جاءت سفن الفضاء بنظريات جديدة • ولعل الصورة النموذجية لامكان تفسير الكون بشيء ، ثم تفسيره بما هو عكس الشيء لا يتجلى في شيء قدر تجليه في دوران الارض حول الشمس أو العكس فقد أمكن

في القديم تفسير كل الظواهر الكونية على اساس ثبوت الارض ودوران الشمس والقبة السماوية كلها حول الارض ، فقد استطاعت هذه النظرية أن تفسر كل شيء وحسبت السنة الشمسية والفصول الاربعة وطـــول الليل والنهار على مدار العام وما هو اهم من ذلك كله وهو الكســـوف والخسوف ، فقد حسب كل ذلك بدقة متناهية لعشرات السنين • ونحـن نعلم الان ان الارض هي التي تدور حول الشمس ، وان القبة السماويـة لا تدور وانما الذي يدور هي الارض ، ولم ينقض ذلك حرفا واحـــدا من حسابات الامس الفلكية ، وغداً بعد ان صعد الانسان الى القمر والفضاء الخارجي ، ستكون ثمة نظريات ومفاهيم جديدة تناقض القديمة ومع ذلك فستكون قادرة على مواجهة الحياة ، فكل حديث عن قوانين ثابتة ومحددة للطبيعة هو قـــول هراء فقد استخلص العقل البشري منها واغترف كـــل ما يسد حاجاته في فترة ما ، ثم استخلص عكس ذلك تماما في فترات أخرى •

حديث العلم عن المـادة :

والان فلنصل الى حديث العلم الحديث عن الكون ، لنــدرك كيف لخص الكون في امواج تختلف في مقادير ذبذبتها فهذه المادة التي عاشـت الانسانية أجيالا ودهورا تتصورها جامدة أي ثابتة اذا بهـا في حقيقتهـا متحركة • فالذرات التي هي لبنات أي جسم ليست سوى كهارب لا تفتأ تدور حول نواة ، واذا المادة ليست سوى طاقة مركزة تركيزا عجيبا ، كمـا ان الطاقة ليست سوى مادة منتشرة ، فهذه من تلك ، وتلك من هذه ، وما الكون كله ليس الا مجموعة من الذبذبات لشيء غامض لا نعرف ماهيته ، يقولون انه الفوتون ، وحدة الضوء ، وهي أقوال وافتراضات من صنع العقـــــل •

والمهم ان العلم أصبح يقول ، ان معنى الحار والبارد ، ومعنى الأحمر والازرق ومعنى الجامد والسائل والغازي كل ذلك هو اختلاف في طول أي موجة ضوئية ومدى سرعة تذبذب هذه الأمواج ، والعين البشرية لا ترى أمواج الضوء الا اذا كانت عند سرعة معينة ، فاذا زادت سرعة أمواج الضوء عن حد معين أو نقصت فان العين لا تراها ، كالاشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية •

فهذا الكون اللانهائي على ما يقول العلم الحديث من سدم ومجرات ونجوم وكواكب وشموس وأقمار وجبال وصحاري وبحار وقبل ذلك كله وبعد ذلك الفراغ هو مجرد اشعاعات وأمواج كهرومغناطيسية ،تختلف في مدى اطوالها وسرعة تذبذباتها والذهن الانساني هو الذي يصنفها ويبوبها ويفرق بينها ، ويضفي على كل واحدة خصائصها .

وعلى ذلك فباستطاعتنا أن نقول مطمئنين ان هذا الكون كما نراه ونسمعه ونلمسه ونشمه ، هو من صنع الانسان وبدون الانسان لا يكون الكون على هذه الصورة ، وحق أن نقول ان الكون على هذه الصورة هو من صنع الذهن الانساني، ويكون سؤالنا بعد ذلك هل لهذا الكون وجود خارج ذهن الانسان ؟ .

* * *

- ٥ -

المــوت والحــب

هما الحقيقتان في هذه الحياة

لديكارت الفيلسوف الفرنسي المشهور قول مشهور طالمـا تمثلت به في كثير من كتاباتي « أنا أفكر فأنا موجود » • أي انه نفى كل مـا في الوجود من حقائق متعارف عليها ، الا أنه يفكـر ومعنى هذا انـه شيء موجود ، وعندي ان هذا لون من التجريد الذكي لا أستطيع أن أبلغ الى مستواه ، ولكنني أقول شيئا آخر وانه منذ كان الانسان انسانا وليس في حياته الا حقيقتان ، أو بالاحرى حقيقة واحدة تتصل بنهاية الحياة وهـي الموت ، وظاهرة مجمع عليها اثناء جريان الحياة ، وهي الحب •

ولنبدأ الحديث عن الحقيقة الأولى ثم نتعرض للحديث عن الظاهرة المؤكدة ونعني بها الحب •

المـوت :

أقول ان ليس في الحياة ما هو مؤكد وما يمكن أن نعتبره الحقيقة الوحيدة التي أجمع عليها البشر لا يشذ في ذلك جيل عن جيل منذ كان الانسان انسانا ، على مر القرون وتباعد الأجيال ، واني أحاول أن أجد شيئا واحدا لا خلاف عليه كالموت ، ما أكثر ما شرق البشر وغربـوا ، ما أكثر ألوانهم وأجناسهم ومعتقداتهم •• ما أكثر ما أجمعوا عليه من مفاهيم وآراء ومـا تشدقوا به باعتباره حقائق كونية ، ثم أظهرت الأيام زيف ذلك كله ، مـا أكثر ما رفع الانسان عقيرته بأن هذا الشيء أو ذاك حـق ثم جـاء أقوام يرون هذا الحق باطلا •

أي شيء في هذه الدنيا صغر أو كبر جل أو حقر لـم يختلف عليـه البشر ؟

أي أمر من الأمور مادي أو معنوي لم يكن نسبيا ، ولم يتغير مـن جيل الى جيل، ما هو الغنى؟ ما هو الجاه ، ما هو الشرف، ما هي الوطنية، ما هو الحر وما هو البرد، ما هو الليل وما هو النهار، ما هو الصيف وما هو الشتاء ، ما هـو الضعف وما هي القوة ، ما هي الاطعمـة المفيـدة وغير المفيدة ، الصحي وغير الصحي ، المتاح وغير المتاح ، ما هو الخير وما هـو الشر ؟ كل هذه المفهومات ، لا تعني شيئا الا بالنسبة لأقوام معينين في زمن معين ومكان معين كذلك ، وحسبك ان تفكر في ان الشمس لا تغرب عن بعض بقاع الأرض لمدة ستة أشهر ، بينما تغيب عنها لمدة ستة أشهر ، لكي تعلم ان مفهوم الليل والنهار يختلف من مكان الى مكان آخر ، وقس على ذلك كل ما يتشدق المتشدقون من أنه حقائـق كونيـة ماديـة كانت أو معنوية .

شيء واحد كان ويكون ويبدو أنه سيكون ما بقي الانسان انسانا ، وعندي انه الموت لا الحياة هو مبعث كل نشاط وهو الذي يجعل الحيـاة على هذه الصورة . لماذا نأكل ونشعر للطعام بلذة، لماذا نلبس ولماذا نسكن ولماذا نتاسل ؟ كل ذلك لنقي أنفسنا خطر الموت ، فاذا لم يكن ثمة خوف من الموت ، فما الذي يحفز الانسان لمجـرد الحركة ، أحسب ان الانسان يتحول الى جماد لولا الموت . أي شيء يجمـع بين البشر على اختـلاف أجناسهم وألوانهم وأقدارهم اليوم وغدا وبالامس والامس البعيد والبعيد جدا ، لا شيء غير الموت ، الحكام والمحكومين ، الطغـاة والجبارين ، الظالمين والمظلومين ، الكبار والصغار ، كل انسان كـل انسان ، أيا كـان شأنه ، أيا كان قدره نبيا كان أو شريرا ، امبراطورا كان أو غفيرا اسكندرا كان أو نابليونا أو هتلرا أو انسانا ضائعا في أصغر قرية ، الموت هو الشيء الوحيد الذي جمع ويجمع وسوف يجمع كل البشر ، حاول أن تفكر في أي شيء آخر فلـن تجد انك تستطيع أن تجزم أن كـل انسان سيمـوت ولكنك لا تستطيع أن تجزم بأن الشمس ستشرق غدا فقد يلحقها كسوف

أو تحجبها غيوم ، ولكن أن تقول : سيموت غـدا بعض البشر ، فهذا هو الشيء الوحيد المحقق •

أسرار المـوت :

واللطيف ان الانسان الحديث يقف بالنسبة لسر المـوت ، كما وقف الانسان البدائي سواء بسواء ، لقد استطاع الانسان في تصوره ان يسيطر على قوى الطبيعة وان يسخرها لاغراضه • لقد اخترع ما جعلـه يسمـع الأصوات الهامسة في ركن من أركان الدنيا ، لقد طار بأسرع من طيـور السماء ، لقد غاص في البحار الى أبعد مما تصل اليـه الاسمـاك ، لقـد استبدل أعينا لا تبصر بأخرى تبصر ، وبقلوب ضعيفة أو فاسدة بأخـرى قوية ، لقد صعد الى القمر ، لقد وقد وقد ، ومع ذلك فهو يقف كالمصعوق والأبله أمام الموت الذي يجئ أحيانا حيث لا يتصور انه سيجيء ولا كيف يجي ، وكل علوم الانسان وكل ما تصور انه قدر آت أصبح يمتلكها تقف عاجزة مشلولة عندما يجيء الموت •

ثلاثـة أمثلـه :

ومن العبث أن نسرد أمثلة على مفاجاءات الموت فما من انسان الا وله تجاربه الخاصة في هذه الناحية ، ففلان كان يلعب معه (الطاولة) بالامس أوفر ما يكون صحة وعافية ثم يطالع نعيه في جرائد الصباح ، وفلان كانوا يتوقعون موته من لحظة لأخرى ، قد نهض سليما معافى •

أقول ما من انسان الا وهو يعلم من هذا القبيـل عشرات الأمثلـة والحوادث •• ومرة أخرى تعجبني قصة تروى عن بوذا في ان امرأة جاءته وهي تبكي لفقد طفلها الوحيد وأبت أن تدفنه وطلبت من بوذا أن يحييه لها ، فقال بوذا : ما أهون هذا فما عليك الا ان تبيتي في بيت أسرة لم يمت لها أحد ، وراحت المرأة تبحث عن أسرة لم يمت لها أحد ، وسرعان ما اكتشفت أن هذا مستحيل ، فمجرد وجودنا يعني أننا نسلنا من أقـوام قد ماتـوا قبلنا وهكذا ••

حالتي وحالة عبد الناصر ورواد الفضاء :

ومع ذلك فلا مناص من ذكر بعض الأمثلة التي ستخلد في التـاريخ

كأروع أمثلة للموت المفاجيء غير المتوقع .

أما أول هذه الأمثلة فهي حالتي شخصيا حيث رتب الجميع أنفسهم على موتي ، ووقف الاطباء في انتظار النهاية ، وكانت حياتي غير المتوقعة وأنا أكتب الآن بعد قرابة عامين ، وخلال هذين العامين شهدت موت أصدقاء لي أصغر سنا مني وجاءوا جميعا يزورونني قبل موتهم وهم أوفر ما يكونون صحة وعافية ، على ان ذلك كما قدمت من الأمور العادية ، ولكن الحادث الجدير بالتسجيل هو حادث وفاة .

جمال عبد الناصر :

لست أريد أن أتحدث عن مدى ما وصل اليه جمال عبد الناصر من عظمة ، لست أريد أن أتحدث عن أنه لم يتصور الموت أبدا ، وانما أشير فقط الى اجراءات الوقاية التي أحاط بها نفسه ، ولن أتحدث عن الحرس الجمهوري ، ولكني فقط سأشير الى أنه كان يرتدي درعا واقيا ، وكانت له سيارة مدرعة يستعملها في روحاته وغدواته ، على ان أهم من ذلك كله انه كان يصحب معه ان راح أو جاء مستشفى كامل وبعض الاطباء المتخصصين في أنواع الجراحة ، أما بيته فقد كان به أعظم مستشفى في مصر ، ولست أريد أن أقول ان أعظم اطباء العالم كانوا رهن اشارته ، ومع ذلك فعندما حم القضاء ، أدركه الموت في أقل من لحظة ، ومن المضحك انه قد مات ورفض كل من حوله أن يصدق انه مات بما في ذلك الاطباء أنفسهم ولكنه كان قد مات ، بينما كنا نشاهد صوره في التلفزيون وهو يودع الملوك والرؤساء أوفر ما يكون صحة وقوة ، حتى لقد حدثت نفسي من أين يجيء بكل هذه القوة وطبعا لم يكن يدور بخلدي ، أو بالأحرى لم أكن أتصور انه كان في هذه اللحظات كان قد مات ، وأصبح في ذمة التاريخ .

رواد الفضاء الروس :

ومثيل ذلك ما حدث لرواد الفضاء الروس فقد أطلق الروس ثلاث رواد ليدوروا في محطة فضائية تدور حول الارض ، ونجحت العملية نجاحا منقطع النظير ، ودار الرواد حول الارض بضع وعشرين يوما وهم

في أتم صحة وعافية ولم ينقطع اتصالهم مع الأرض لحظة واحدة ، وكان كل شيء يسير على ما يرام ، وأخيرا جاءت اللحظة التي قرر فيها الروس اعادة روادهم الى الارض ، وسار كل شيء كالساعة الدقاقة ونزلت مركبة الفضاء في الزمان والمكان المحددين بالثانية ، وفتحوا باب مركبة الفضاء ليروا الرواد الثلاثة موتى وصعق العالم كله ، ووقف العلماء كبار العلماء الذين نظموا كل شيء في الكون حيارى ، لا يريدون ان يعترفوا بأنهم امام سر الموت بلهاء كأي زنجي أو احد أفراد الأسكيمو ، ولكنه الموت حقيقة الحياة الوحيدة .

الحب :

اذا كان الموت هو حقيقة الحياة الكبرى أو بالأحرى الحقيقة الوحيدة فانه مما يؤسف له ان هذه الحقيقة لا تتجلى الا في نهاية الحياة نفسها ، ولذلك فما أجمل القول القائل « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » أقول اذا كان الموت حقيقة مؤكدة ، فان ثمة ظاهرة تفوق بقية الظواهر الأخرى اثناء سير الحياة نفسها ، ولعلها هي المحرك الدافع لتدفق الحياة ، وهذه الظاهرة هي الحب ولا يتصورّن متصور انني أقصد بالحب حب الذكر للأنثى ، فليس ذلك الا عرض من أعراض هذه الظاهرة الكبرى ظاهرة الحب ، والحب الذي أعنيه باعتباره الظاهرة الكبرى من ظواهر الحياة ، هو حب الأم لأطفالها حتى قبل أن يوجدوا ، هذا هو الحب الذي لا قبله ولا بعده ، بل ولا شيء سواه يمكن أن يكون محل اجماع بين البشر ، ليس فقط البشر الذين كانوا وهم كائنون وانما هو سمة كل كائن حي ، ونحن نشهد بأعيننا المعجب والمطرب من حب الامهات لأجنتها ، وعندي أن كل ما اتفقنا على تسميته جميلا في الحياة ، انما هو رذاذ هذه العاطفه الكبرى عاطفة الامومة فهي الأصل وهي الجذر والجذع والساق ، وكل مناشط الحياة التي اتفقنا على تسميتها بالطيبة أو الخيرة ، هي الفروع والأوراق والزهور والثمر ، ولست أعني بذلك مجرد العواطف والميول السامية من حب ورحمة وتعاطف وايثار وتضحيه ، وانما أعني في نفس الوقت بقية المناشط الماديه من طعام وشراب ولباس وبناء وتشييد وتعمير ولنبدأ بأقوى الظواهر المنبثقة من

الأمومة وهو الحب بين الذكر والأنثى والذي هو أحد حيل الطبيعة لتبدأ الأمومة دورها الخلاق المبدع ولتصنع الأنثى الحياة •

الحب ليس الا جنسا :

كل حب بين الذكر والانثى ليس الا جنسا وان تخفى واستخفى تحت أي قناع ، وهذا الذي يسمونه حبا عذريا ، أو افلاطونيا أو رومانتيكيا ، الى غير ذلك من الاسماء فهو لا يعدو ان يكون كأي حب نهايته الجنس ، الا أن تكون هناك بعض الموانع ، ذلك ان العلاقة بين الذكر والانثى لتنتهي بالاتحاد الجنسي هو أخص خصائص الحياة ، لضمان استمرارها وتصطنع الطبيعة كل قدرتها وحيلها وتفننها ، ليتصل الذكر بالأنثى في كل صنوف الحياة : نبات ، حيوان، انسان، ليتحقق الاتحاد الجنسي ويبدأ دور الامومة وليست المتعة الجنسية التي هي أعظم متع الحياة الا احبولة الطبيعة ليبدأ دور الامومة أعظم أدوار الحياة ، جمال الذكورة كما يتجلى في الطيور والحيوانات هو بداية الطريق للانجاب، ومن هنا كان الزواج من أقدم شرائع الانسان بل لعله أولها على الاطلاق ، لتستطيع الامومة ان تؤدي رسالتها الكونيه بمعونة الأب أو بالأحرى حمايته ، وهذا هو ما يميز الزواج ويجعله علاقة مقدسة بالنسبة لأي علاقة عابرة بين الذكر والانثى ، ذلك ان المتعة الجنسية ليست الا وسيلة لغاية وهي الانجاب ، فكل علاقة جسدية بين الذكر والانثى لا يكون هدفها الانجاب يكون اشتغالا بالوسيلة دون الغاية ويكون عدوانا على الحياة بتعطيل الام عن اداء وظيفتها في الحياة وهو العمل على استمرار الحياة ، وقد لا يأبه الرجل كثيرا بفكرة الانجاب ، ولكن الانجاب للمرأة هو كل حياتها ، قد تستطيع أن تؤخره قليلا على مضض لسبب من الاسباب ولكنها لا تستطيع أن تحتمله طول الوقت ، وعندي أنه ليس هناك أتعس من الانثى التي لا تنجب مهما تظاهرت وادعت غير ذلك ، مهما كانت أعلم العلماء ، أو أعظم العظماء ذلك ان رسالتها الاولى هي الأمومة وكل ما عدا ذلك بالنسبة للمرأة فهو أمر ثانوي على هامش الحياة ، بل ليس من الحياة على الاطلاق ، ان العالم لم يعرف حتى الان اسما لامعا في دنيا العلماء يفوق اسم مدام كوري التي كانت أول من كشف للدنيا عن المواد المشعة (الراديوم ــ اليورانيوم) وما ترتب على ذلك من انقلاب في

دنيا العلم ، ومع ذلك فتاريخ حياتها يقول لنا كـم حزنت وتألمت عندمـا (اجهضت) في أحد المرات ، على الرغم من أنها كانت قد انجبت من قبل ، ولكن لانها كانت امرأة سوية ، فقد كانت الامومة لا العلم هي رسالتهـا الأولى في الحياة .

خصائص الأمومـة :

وما أعظم خصائص الامومة ، وأدق أسرارها ، وأجمل صورها ، انها أبدع شيء في الحياة بل هي الحياة بذاتها ، ولا عجب أن عبد الانسان أول ما عبد أمه بالذات فلما شب عقله عن الطوق واتسعت آفاقه عبد الأمومة في مجموعها رامزا اليها بالالهة الأم كايزيس في العالم القديم، واضرابها في أي مجتمع آخر (منرفا ــ اثينا ــ اللات والعزى) ومريم ام الاله كما يقولون في دنيا المسيحية .

كل ما هو خير وفاضل :

لا أحسب ان هناك معنى فاضل أو خيّر مما تعارف عليه البشر لا يتمثل في الأمومة : الصبر ، المعاناة في سبيل هدف انساني ، بذل النفس ، انكار الذات ، الايثار التضحية ، كل هذه المعاني التي تتصورهـا والتي نحسب أحيانا انها غير موجودة انما تتمثل كلها في الامومة وقد تجسدها امرأة قروية بأكثر ما تمثلها امرأة ذائعة الصيت ولكنها لا تمارس دورها كأم .

رحلـة الأمومـة :

وما اطول رحلة الأمومة منذ تلعب الطفله بدميتها ، وهي تبحث عـن رجلها الملائم الذي تطمئن في ظله لممارسة امومتها ، وما بقيت الفتاة ليست أما فهي دون الرجل من غير شك والذين يريدون ان يتحدثوا عن عدم تكافؤ الجنسين ، فليتحدثوا ما شاءوا عن الانثى قبل ان تصبح أما . أما بعد ان تصبح أما فلا جدال أو شبهة في انها تعلو في نظر الحياة والطبيعة على الرجل، وليس هناك ما هو ادعى للسخرية من تصور البعض ان الرجل أكمل مـن المرأة ، فكيف والرجل اي رجل هو بعض نتاج المرأة ، وكيف يستسيغ العقل أي عقل ان ينشأ الكمال من النقص ، أو ان يتوالد الاحسن من الحسن ، ان فاقد الشيء لا يعطيه ، فاذا كان نابليون عظيما فان أمه أعظم ، وعندما عـزل

نابليون من فوق عرشه وجرد من صولجانه ومجده ، لم يكن هناك الا أمه تزوده بجواهرها وأموالها التي كانت تدخرها أيام الرخاء ، وليس عبثا ولا كان ومهما تملكه غرور العظمة أو تاه في ضباب أوضاع الحياة وأشكالها
كان ومهما تملكه غرور العظمة أو تاه في ضباب أو ضاع الحياة وأشكالها
فهو ليس بالنسبة لأمه الا هذا الطفل الذي أحسبت بانتفاضته لاول مرة في احشائها ، ثم حملته في صبر جميل في بطنها وفي الوقت الذي يرثى جميع الناس لحالها لما يتصورونه من حمل يبهظها ، تكون هي سعيدة فخورة بحملها ، وأي آلام تلك التي تتحملها حتى تقدم للحياة وليدها ، ولكن هذه الآلام كلها تختفي بمجرد ان تسمع أول صرخات الكائن الحي الذي أبرزته للوجود ، هنا وهنا فقط قد يسمح لنفسها باغفاءة قصيرة والبسمة مرتسمة على شفتيها لقد أعطت الحياة ما يمكنها من الاستمرار ، وما أطول الرحلة التي لا تنتهي الا بوفاة الأم ، حيث تظل تعطي ، وتعطي بدون انقطاع سعادتها وكيانها كله يقوم على هذا العطاء ، بغير حساب وبدون من وبغير انتظار لأي مقابل . ومن هذه الظاهرة — ظاهرة الامومة — ينبثق كل ما هو جميل ورائع وحق في هذه الدنيا وهو ما أجمله في كلمة الحب بكل صوره وأشكاله ما يتفرع منه وينبني عليه ، مما اعتدنا أن نسميه تسامي وخير بكل ضروبه فليس ذلك كله الا شذرات من هذه العاطفة الأصيله المتكامله والتي نسميها بالامومة ، ولنضرب مثلا بعاطفة الصداقة التي تقوم بين رجل ورجل فأحلى ما في هذه الصداقة ، من تعاطف وحنان وايناس ، وتعاون فليس ذلك الا ظلال من هذه الظاهرة الكبرى ظاهرة الامومة وقس على ذلك .

* * *

-٦-

زوجتي التي أصبحت

ماما

أم المؤمنين ، ام المجاهدين ، ست الكل الزوجة المثاليه ، انها ملاك بل أكثر من ملاك ، القديسة ، كل هذه الاوصاف هو ما اعتاد اصدقائي ومـن يحيطون بي ان يصفوا به زوجتي ، وفي كل مكان حللنا به أثناء مرضي حتى في لندن نفسها ، كانت تروع كل المحتكين بنا ، بتفانيها في رعايتي حتى لتحرم نفسها من كل مباهج الحياة ، بل من مجرد الترفيه عن النفس حتى لا تفارقني عن عينها لحظة واحدة ، وسنرى أنها فعلت اكثر من ذلك ، فانتهى الانجليز الى اعتبارها اعجوبه ، أما بالنسبة لي فقد كانت زوجتي ورزقنا سويا ستة أولاد مات واحد منهم عام ١٩٤٤ وعاش لنا خمسة أبناء، ثلاث بنات وولدان وقد تزوجوا جميعا ما عدا ابني الصغير مجدي الذي لم يتم دراسته الجامعية بعد والمأمول ان ينتهي منها في العام القادم • وبهذا يعتبر زواجنا ناجحا ، وقد تزوجنا عام ١٩٣٨ أي منذ اكثر من ثلاثين سنة ، وقد تعرفت بزوجتي عندما لم أكن اكملت العشرين ، وربما الخامسة عشر وقد كان قدرا سعيدا هذا الـذي جعـل والـدي يصهـر بعد وفاة والدتي الى خالة زوجتي فتعرفت اليها وهي لا تزال صغيرة جداً في السن، ولم اكن اعرف وانا استعذب هذه الطفلة الصغيرة ، أنها ستكون هدية السماء لي ، وما أثمنها من هدية وأغلاها ، وقد شرقت وغربت ، ومضت سنوات طويلة ، قبل أن أمد يدي لأتناول جائزة السماء لي ، وأتزوج بحسنية ، وقد قارب سني على الثلاثين وقارب بيننا القدر مرة أخرى ، ليبلغ الكتاب أجله ، ولم أكن أتصور يوم ان تزوجت حسنية ، اننا سنقطع معا هذا الشوط الطويـل ، وستظل تعلو

وتعظم حتى تصبح لي هي كل شيء وان الامر سينتهي بنا الى ان أعود طفلا عاجزا وان تغدو لي أما ترتبط بي لا برباط الزوجية الذي يقوم بين متكافئين والذي هو في أحسن صورها وأشكالها شركة تقوم على الأخذ والعطاء المتبادلين وانما أصبح الرباط الذي يربطنا هو رباط الأمومة الذي تحدثت عنه والذي يقوم من جانب واحد ، جانب الامومة التي تعطي كل شيء ولا تنتظر شيئا ، وكأن الله قد أراد أن يؤدبني ، على كثرة ما اختلفت معها على رغبتها المستمرة في تضحية نفسها من أجل أولادها ، فأصبحت أحد هؤلاء الأولاد الذين يعيشون على هذه التضحيه المستمرة ، واللطيف انني أداعبها الان فأقول لها ان الله قد حقق لها ما تريد ، فقد كانت شديدة الرغبة طوال حياتنا الزوجيه ، أن تثبت لي أنه لا يوجد في الدنيا من هو أشد عطفا علي منها ، وأنها انفع لي في الدنيا من أي شيء آخر ، وها أنذا أصبحت لا أعيش كما اعتدت أن أعيش ، الا لأنها هي التي تطعمني ، وهي التي تنظفني ، وهي التي تلبسني ، وهي التي تجعلني أواصل مسيرة الحياة ، وهي على فرط ما تعاني لا تتوقف لحظة لتسائل نفسها فيم هذا العناء ، انها ام وقد أصبحت وليدها فهي تمارس دور الامومة القائم على البذل والعطاء وانكار الذات ، على ان المرأة تحتمل مشاق الامومة في شبابها . أما زوجتي فيظهر انه قدر محتوم عليها أن تمارس أخص خصائص الأمومة بكل متاعبها ومشاقها بعد ان جاوزت الاربعين وكل أملي ورجائي الان بعد ان كدت أيأس من الشفاء، أن يمنحها الآن الصحة والعافية التي تقدرها على رعاية هذا الطفل المتعب الكبيروالذي يزيد سنه كما يزيد وزنه عن بضع وستين، واني أريد أن أسجل للاجيال ، بعض الومضات من حياتنا معا ، ليدرك كل انسان ان اثمن وأروع شيء في هذا الوجود بعد الامومة الصادقة هو الزوجة الصالحة ، وقد شاء الله أن يمنحني الاثنينمعا فيشخص حسنية ويظهر انه كان لا بد من مرضي لأنعم بهذه النعمة نعمة الأمومة .

مواقــــف :

كل حياتي مع زوجتي جدير بالتسجيل يوما بعد يوم وساعة بعد أخرى فهو جميل ورائع ، ولكني سأختار بعض الصور المنقوشه في رأسي كما لو

كانت حدثت بالأمس القريب .

عقـد القران :

كل فتاة تعيش طول حياتها وهي تحلم بأفراح عرسها ، أما أنا فقد كنت من الغرور والغطرسة بحيث أحرم زوجتي من هذه المتعة بحجة أنها لا تتلاءم مع حياة المجاهدين ، حتى صورة الفرح التذكارية لا وجود لها عندنا ، وقد تقبلت زوجتي كل ذلك بصدر رحب وبدون شكوى ، ولم يحدث في مـرة من المرات ان ذكرتني بهذه الحقيقة ، مما يدل على أنها لم تترك في نفسها أي مرارة ، وزوجتي في هذه الناحية ، يظهر أنها استثناء من كل بنات جنسها ، ويظهر ان الله صاغها خصيصا لتكون متلائمة مع ظروف حياتي ، فياطالما تحدث المتحدثون عن افتتان النساء بالجواهـر والحلى من كل صنف وفي مقدمتها بطبيعةالحال الحلى الذهبية، حتى لقد أسس «جوته» روايته الشهيرة «فاوست» على أساس استطاعة الشيطان ان يدفع أي عذراء طاهرة للخطيئة عندما يلوح لها بالجواهر واللآلىء الثمينة ، وأشهد ان زوجتي لم تكن تأبه لشيء من ذلك ، أو تتوقف أمامه لحظة واحدة ليس لأننا فقراء لا نملـك ما نشتري به مجوهرات بل انها لم تتردد لحظة في التبرع بكل ما كان عندها من هذا النوع لنبدأ به اكتتابا لتأسيس دار خاصة للحزب ، ولم يحتـج الأمر مني الا لمجرد ترديد الفكر أمامها ، وعندما كان أخوها وزير وأهدي له في بعض جولاته عقدا لؤلؤيا فاخرا ، فأهداه بدوره لها وبالفعل أصبح في حوزتها ولبسته ، وكان من رأيي أن أخاها لا حق له في هذه الهدايا وأنها من حق الدولة ، فلم تتردد لحظة في أن تخلعه وترده لاخيها ، الذي سلم بالفعل كل الهدايا التي وصلته ، مما أحدث له أكبر أزمة مع الرجال المحيطين بعبـد الناصر .

وقد يظن ظان أنها فعلت ذلك تحاشيا من اغضابي ، ولكني ما كنت أغضب في كلتا الحالتين وأمثالهما ، وليس أدل على ذلك من انني بعد ان مرضت ، مرت علينا مناسبات توفر فيها بعض المال الذي ألححت ان تشتري بعض الحلى ، فكانت ترفض بشدة وتؤثر على ان تشتري هدايا لأولادهـا وأحفادها وأفراد العائلة ومعارفها ، ويتصل بالمجوهرات وكراهيتها لها ، الفراء فيا طالما اتيحت لي أكثر من فرصة لاشتري لها معطفا من الفراء غـير

الثمين جدا ، ومرة من الثمين جدا ، ولكنها كانت ترفض بصدق وشدة ومع كل ذلك فلم تكن تسلم من اعتراضاتي ومناكفتي وهي تشتري بعض الهدايا لمن تحب أن توزع عليهم الهدايا ، أو وهي تنفق على بعض المآدب للآخرين ، مع ان كل ما يمكن ان تفعله من هذا القبيل لا يمكن أن يبلغ عشر معشار ما تنفقه سيدة عادية على ملابسها وزينتها ، ولا نقول حليها .

عشرة قروش :

وان أنسى فلا أنسى ، كيف أصبحنا في بعض الايام في السنة الاولى من زواجنا وليس عندنا ما ننفقه ثم حدث أن عثرنا في بعض ملابسي على خمسة أو عشرة قروش لا أذكر على وجه التحديد ، وما زلت أذكر صورة وجهها المشرق بالفرح والخالي من أي مرارة ان تصل حياتنا الى هذه الدرجة، لقد وطدت نفسها منذ اللحظة الاولى على ان تكون زوجة مجاهد بل وان تكون مجاهدة على طريقتها ، فلم يحدث أبدا ان اشتكت من نوعية حياتنا ، فكانت تستقبل ضباط البوليس الذين يأتون من حين لآخر للقبض علي وتفتيش البيت بابتسامة ترحيب كانت تخجلهم ، فمن عادة النساء في هذه المناسبات ان يرفعن بالصوت أو يتنرفزن على الأقل، وقد كان سلوك زوجتي بهذا الاسلوب مع رجال البوليس والنيابة يربكهن ، وقد صور ذلك الشعور بالخجل والارتباك الاستاذ جمال العطيفي في كتابه الذي أصدره متضمنا بعض ذكرياته عندما كان وكيل نيابة وجاء لتفتيش بيتي واستقبلته زوجتي بأسلوبها المعهود . ولذلك فاني أشهد أمام الله أن البوليس والنيابه (قبل الثورة) قد أحطنها دائما بالاحترام والتوقير ، ولم يرفضن لها أي طلب في يوم من الايام ، وعندما احتجّت في أحد المرات ان أحد مآمير السجن (وقد كنت متهما في حريق القاهرة) قد فتش حقيبة يدها قبل أن يسمح لها بزيارتي ، فلما استنكرت هذا التصرف ، انضم الي في استنكاري كبار رجال البوليس والنيابة .

هدوء وثبات :

ومن أعظم المواقف التي أذكرها لزوجتي والتي هزتني هزا في حينها ، وملأتني إعجابا بها وفخارا بأن تكون هذه هي شريكة حياتي عندما كنت

متهما في حريق القاهرة ، وكان كل انسان في مصر يعرف انهم يدبرون عملية اعدامي وذات صباح صدرت الصحف وهي تحمل بالخط العريض الاحمر « النيابة تطالب باعدام أحمد حسين » ، في ذلك اليوم زارتني زوجتي في السجن، وعلى ثغرها هذه البسمة الرقيقة التي لا تفارقها فيأحلك الأوقات، وكان الهدوء والكبرياء يسيطران عليها بأروع صورة ، بحيث لم أتمالك نفسي من الاعجاب والاكبار ، ولقد كان هذا موقفها كلما زارتني في السجن، بحيث كان ضباط السجن كبقية من يرونها معي يحسدونني عليها ناسين الحالة التي أكون عليها وهي دائما أسوأ من السوء ، وذلك لما تشعهحولها من دفء وحنان وانكار ذات وتفان الى حد خرافي ، على ان كل مواقفها طوال ثلاثين سنة الى جواري قاست فيها الأهوال ، لا يقارن بموقفها معي في لندن عندما تلقت نبأ جد محزن فأخفته عني بصورة معجزة ، بحيث لم ألحظ أي شيء رغم فراستي وشدة يقظتي وهذا الخبر هو مصرع زوج ابنتي الشهيد سامح مرعي عبد الرازق ٠

كيف اخفت عني زوجتي مصرع زوج ابنتي :

والآن فلأصل الى ذروة مواقفها والذي أعتبره فوق طاقة البشر ، أو طاقتي أنا على الأقل ، وأعني بذلك اخفاء مصرع زوج ابنتي سامح مرعي عبد الرازق الطيار ، وابنتي كانت لا تزال تشبه العروس بحكم تغيب زوجها عنها الدائم في المهمات القتالية التي يندب اليها ، وقد رزقت منه بطفلين في عامين متتاليين ، وكان أحد الطفلين قد أتم عامه الثالث والثاني دون ذلك بسنة ولم يكونا قد فرغا من اكمال تجهيز بيتهما بعد ، وجاء خبر استشهاده ونحن في لندن وكان عندي في المستشفى ضيف ووقعت عينا زوجتي على الخبر منشورا في الاهرام ، وفوجئت بزوجتي تنخرطفي بكاء عنيف هستيري في خارج الحجرة وخيل الي أنها تحتج في بكائها على أمر ولم أتصور الا أن يكون أحد اهانها وعاد الضيف الذي كان قد غادرني زاعما أنه يريد ان يمكث معي بعض الوقت وسألت عما حدث لزوجتي ولماذا تبكي فأنكر ان يكون شيء من ذلك قد حدث وأصررت على ان شيئا ما قد حدث وكانت زوجتي أكثر لباقة منه ، اذ لم تلبث أن دخلت علي وعلى وجهها الابتسامه المعهوده ، وادعت ان يدها قد ارتطمت بالحائط فبكت ، وليس أدل على

حالتي الصحيــة من أنني ابتلعت هذه الكذبــة الساذجة ، وهكذا حملت زوجتي في صمت وبمفردها وقع الصدمة لتوفر علي وقع النبأ السيء ، والله وحده يعلم أي الآلام التي تحملتها في هذه الايام، وهي تغادر المستشفى كل ليلة لتنام وحيدة كئيبة في لندن الباردة الكئيبة • والمهم انني لم ألحظ أي تغير في تصرفاتها ولقد كتبت تشكو الى القاهرة قسوة الظروف عليها، فبعثوا بابنتي حرية، فلم أر في حضورها شيئا غير عادي، والمهم ان زوجتي استطاعت ان تخفي عني الخبر فتظل محتفظه بكل بشاشتها أمامي ، حيث تنخرط في البكاء كلما انفردت بنفسها •

صارت لـــي أمـــا :

هذه هي الزوجة التي تحولت الى أم في الوقت الذي تحولت فيه من ناحية القدرة المادية الى طفل بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالــة علــى العجز والقصور فهي التي تطعمني وهي التي تنظفني ، وأكثر من ذلك ، تحتمل قذاراتي ، وكل أعمالي التي تثير الاشمئزاز والتقزز ليس فقط بصبر واحتمال ، بل وبما هو أكثر من ذلك وهو محاولة التهوين والتبسيط والادعاء دائما أن ما حدث هو شيء طبيعي جدا تماما كما تحس أي أم حيال طفلها ولقد عودتني زوجتي أنها كانت ترتفع دائما الى مستوى الحادثات ، وكانت عظمتهــا وجلالهــا لا يتمثــلان في وقــت تمثلهمــا في الشدائــد ، ولكن الــذي لــم يكن يطــوف لي في خيــال ، أنهــا وهــي التــي كانت شديــدة الغــيرة على غيرة شديــدة يصــل بهــا الأمــر الــى حد رضائها، بل وترحيبها في أن تتولى الممرضات الانجليزيات اعطائي حماما كل يوم ، وقد يقال ان ذلك من اجراءات العلاج التي لا مناص منها ولكن الذي لم يكن من اجراءات العلاج من غير شك هو ان بعض الممرضات كن يقبلنني على سبيل الشكر لاعطائهن بعض الهدايا ، وتحس زوجتي بافتخار واعتزاز كما تشعر أي أم عندما يقبل الناس وليدها، وقد كان البعض يحاول مداعبتها ، فيحذرونها من الممرضات فلم يكن لها الا رد واحد : فليشفوه وليرجع كما كان بأي ثمن ، حتى لو أخذوه مني • بطبيعة الحال هي تقول ذلك ثقة منها بأن هذا لا يمكن ان يحدث ، ومع ذلك فهي تقوله بشعور الأم التي لا يعنيها الا سلامة ولدها •

خلافـــات :

وهذا كله لا يعني أن حياتنا قد خلت من الخلافات قبل مرضي ، وبعد أن عاد الي الوعي بعد مرضي ، فالخلافات هي الحياة ، وكلمـا زاد تعلـق الزوجين ببعضهمـا كلمـا زادت خلافاتهمـا في المسائل الجزئية والتافهة مما يقع كل يوم ، ولكنني أشهد أمام التاريخ والاجيال انني كنت متجنيـا عليها ، فقد كانت كل خلافاتنا تنبثق من مصدر واحد هو مثاليتها وحنانهـا ودقتها ورغبتها في عمل كل شيء لأولادها وان لم يقوموا بحقها ، كما أشهد كذلك انصافا لنفسي ، ان كل اصطداماتي معها هي لرغبتي في راحتها ، في التفكير بعض الوقت في نفسها ومستقبلها ، وما من رجل في الدنيا الا ويضع صالح ابنائه فوق صالح زوجته ، أما هي فقد كان صالحها يعلو عندي على أي شيء ، ولو خيرت بين أولادي وبينها لاخترتها في غير تردد وليعذرنـي أولادي في هذا التصريح ، فهم يرون بأنفسهم كيف احتملت وصبرت ثـم أصبحت لي في النهاية أما ، وهي في النهاية أمهم قبل أن تصير أمي .

* * *

- ٧ -

ما هي هذه الشخصية

التي يتحدثون عنها أليست هي الروح

والآن أتساءل ما هي الشخصية، هذه الكلمة التي لا تقل غموضا عن كلمة « الروح » وعندي ان الكلمتين تعبير عن ظاهرة واضحة عبر عنها الأقدمون بكلمة الروح وكان من الطبيعي وقد جاءت الاديان السماويه لتحدث الانسان بلغته ومفاهيمه ان تتحدث عن الروح كحقيقة واقعه، ولكنها شيء غامض لا نعرف كنهه ولا نعرف مستقره، ولكننا نعرف وجوده، ونعرف غيابه ، وقد كان كل شيء في حياة الانسان سهل وميسر ومفهوم على ضوء كونه يتألف من جسد مادي وروحي .

والروح هي التي تسير الانسان وتحركه هي ينبوع كل حيويته ونشاطه واتناجه وابداعه ، هي التي تضفي عليه كل خصائصه هي التي تجعل قلبه يدق ورئته تعمل ويداه تعملان وعقله يدبر . فاذا فارقت الروح البدن كان شأن الكائن الحي شأن أي مكان مغمور بالضوء، حيث يرى غاصا بالكائنات باحجامها وألوانها واصواتها حتى اذ حرك زر كهربائي صغير ساد الظلام فاختفت المرئيات والألوان والابتعاد ولكن هذا التشبيه بين المكان المضيء عندما يظلم وبين حلول الروح في جسم من الاجسام وخروجها منه ليس متطابقا الا من ناحية وهي اختفاء المرئيات في حالة الاظلام ولكن هذه المرئيات لا تزال هناك ثابته بكل أشكالها وألوانها وأبعادها، وحسب الانسان ان يشعل وميضا من الضوء بأي أسلوب لكي يرى كل شيء في مكانه بصورته المعهودة ، أما في حالة ذهاب الروح فان الجسد يتحلل ثم يتلاشى ، ويجب

لكي تتشابه الصورتان ويبدو أن كل ما في الكون يعمل وفق سُنّة معينة، أقول لكي تتشابه الصورتان يجب أن نؤمن بالبعث، حيث تعود الروح للجسد فاذا به يعود كما كان ومعنى هذا أنه كان دائما هناك ، يظلم ويضيء أو بالأحرى يوجد ويظهر أو يختفي ويتلاشى حسب وجود الروح أو انعدامها، وما أكثر ما حاول الاقدمون ان يحددوا ماهية الروح فقالوا عنها أنها (نفس) من نوع الهواء ، وقالوا عنها حرارة ، وقالوا عنها ضوء أي نور ولكن أروع ما قيل فيها هو قول القرآن الكريم : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » أي أن الروح من كنه الله فهي بعض سره الذي حارت فيه العقول والذي هو أخفى من الخفاء وعقولنا مجهزة للاقرار بوجوده دون معرفة أي شيء عن ماهيته ، وهذا هو شأننا بالنسبة للروح فشتى الظواهر تقطع بوجود الروح ، ولكن ما هي لماذا تجيء ومن أين تجيء ، ومتى تذهب ولماذا تذهب وأين تذهب ؟ كل هذه أسئلة تكفلت الاديان بالرد عليها ، ويفسرها كلها ايماننا بالله .

العصر الحديث ينكر :

وفي عصرنا المادي الحديث أصبحوا وأعني بهم الفلاسفة والمفكرون ممن لا يؤمنون بما وراء الطبيعة ، لا يطيقون سماع كلمة الروح باعتبارها شيئا يغاير المادة ، وخاصة بعد أن انحل الازدواج بين المادة والطاقة وتبين كلا منهما حالة للاخرى ، وبدأنا نطالع في الكتب الحديثة الكلام يدور حول ما يسمونه « الشخصية » وليس الحديث عن الشخصيه بالشيء الجديد ، فطالما دار الحديث منذ أقدم العصور على شخصية الانسان باعتبارها طابعه المميز ، ولكن الحديث عن الشخصية في عصرنا الحديث قد أصبح يمتد الى مجموعة الظواهر التي كان يعبر عنها بالروح ، وفي هذه السطور حيث لا أكتب علما ولكني أتأمل أريد أن أتساءل ما هي الشخصية الانسانية ؟ ما هذا الاساس الذي يلازم الانسان منذ طفولته الى أن يموت بأنه هو من هو ما هذه (الأنا) التي يتلفظ بها الانسان عندما يتكلم عشرات المرات وأحيانا مئات المرات في الجلسة الواحدة ، يقولها سافرة احيانا (أنا ، اني) ومضمرة أحيانا (اريد ، فكرت ، قا[illegible] سأسافر سأفعل كذا وكيت) وأكثر من النطق بها الاحساس الدائم [illegible]جودها في النوم مثل ما في اليقظة ، في السراء مثل

ما في الضراء في الصحة مثل ما في المرض ، دائما هذا الشعور (بالأنا) واللطيف ان هذا الشعور لا يتغير أو يتبدل مهما تغيرت أحـوال الانسان وتبدلت ، فأنا الآن وقد شارفت الخامسة والستين أحس بذاتي وكياني كما احسست بهما دائما عندما كنت صبيا ، وبعد ان اصبحت شابا فرجلا فكهلا فعاجزا مشلولا ، ليست هناك فواصل بين مرحلة ومرحلة وانما هو جريـان مستمر ، وتيار متصل ، وما أكثر ما أحس بنفسي كما كنت أحس دائما في أوج نشاطي واذا بي أفاجأ بحالتي الجديدة من العجز ، فأضحك من هـذا الذي وقع ولست احسبني في ذلك بدعا وليس أدل على ذلك من ان كل انسان يفكر ويحس ويتصرف كما اعتاد ان يتصرف منذ كان قادرا علـى التصرف بنفس الاسلوب والطابع حتى ولو كان طريح الفراش حتى ولو كان لا يفيق من غيبوبته الا للحظات حتى ولو كان الموت يترصده بعد ثوان وهذا هو سر هذه الظاهرة التي يتندر بها الناس مع انها من صميم الحياة وهو ما ينسبونه للنساء خطأ من انهن يصغرن سنهن ، فالظاهرة عامة يشترك فيهـا النساء والرجال فما اكثر الرجال الذين يصبغون شعرهـم لان احساسهم الداخلي بالشباب قوي في نفوسهم ، وما أكثر ما يتحدث الناس عن العجوز المتصابي رجلا كان أو امرأة مع ان هذا الطراز من الرجال والسيدات لا يفعل شيئا الا ان يواصل ما اعتاد عمله طول حياته من التزيـن والتجمـل والافراط فيهما أحيانا ، شعورا منه بأنه هو هو لم يتغير ولم يتبدل . اي ان الملاحظ الذي يحسه كل انسان من نفسه ان هناك شعورا واحدا متـصلا بالوجود والكينونة والذاتية ، لا يختلف باختلاف الأحوال المتطورة حول الانسان من زمان ومكان وصفات في الوقت الذي يتقلب فيه الجسد تقلبات شتى ، بين أطوار الحياة من صبا وشباب ، وشيخوخه وقوة وضعف، وصحة ومرض ، بل قد ينقص الجسد الى النصف كما لو بترت الساقان فان شعور الانسان بنفسه يبقى كاملا وهذا ما حدا بالبعض ان يقولوا ان الانسان ليس الا عقلا ولكني أقول حتى لو ذهب عقله كما في حالة الجنون فان احساسه بنفسه يبقى متكاملا وحسبك ان تنظر الى مجنون لترى الثبات الذي يتصرف به كما اعتاد دائما ان يتصرف به قبل جنونه (طبعا فيما خلا الموضوع الذي

وقع الخلل فيه) .

ما الذي تحدثه الشخصية في الحياة :

وثمة عديد من الظواهر التي تدل على أن شخصية كل انسان تثير حولها اشعاعات خاصة تحدث أثرا معينا فثمة اشخاص تحبهم للوهلة الاولى بمجرد ان تقع عيناك عليهم ، وثمة اشخاص يحدثون العكس فتحس بازورارك عنهم مع أنه لم يقع منهم ما يكدرك شخصيا وقس على ذلك مختلف الأحاسيس التي تحسها حيال الغرباء ، فالبعض تثق فيه والبعض لا تطمئن اليه ، والبعض يثير في نفسك الضحك ، والبعض الاشفاق وهكذا .

شخصية العظماء :

ويأتي على رأس هذه الظواهر كلها ما يحدثه العظماء بشخصياتهم على من يحيطون بهم ، فالرجل العظيم يفرض شخصيته على كل من يحيطون فاذا بهم يلغون شخصياتهم ويخضعون له ، بمحض حريتهم واختيارهم في أغلب الاحيان، فترى الجنود علىاستعداد للموت طواعية واختيارا بناء على اشارة من قائد عظيم ومثل ذلك يحدث في مختلف ميادين العظمة ، وقد حاول المتحدثون الجدد ان يفسروا نبوة الأنبياء بأنها مظهر قوة الشخصية ، فالمسيح قد أحدث ما احدث بسبب قوة شخصيته وكذلك سيدنا محمد ناسين انهم بذلك لم يحلوا الاشكال أو بالاحرى السر العميق الذي يحيط بالمسيح وسيدنا محمد . فما هي هذه الشخصية التي تستطيع أن تسيطر وتهيمن على ملايين البشر اجيالا بعد أجيال ، ليس فقط ابان حياتها ، بل وبعد موتها بعشرات القرون ولماذا كان عيسى واحد في كل البشر ومحمد واحد من لهما كل هذا الاثر . أليس من حقنا ان نتساءل ما هي هذه الشخصية ، أليست هي الروح التي هي من أمر ربي ؟!

* * *

اغبط كل من مات

كتبت قبلا ان الموت هو الحقيقة الواحدة الثابته في الحياة والتي لا شك فيها ، وما دام ذلك كذلك ، فقد أصبحت أتحسر كلما تذكرت انني لا أزال حيا ، وأغبط كل من مات ، أولا لأنه اجتاز هذا الجسر الموصل بين الحياة والموت ، وانقضت محنته ، والثاني لانه أصبح جزءا من الحقيقة المجردة ٠

وما دام الموت هو النهاية الحتمية لكل كائن حي ولا فكاك منه ، فان هذا يعني أنه غاية الحياة أو بالأحرى غاية الغايات ولست أدري لماذا وهذه حقيقةالموت،فلماذا يفزع منه البشر كل هذا الفزع، انه ليس هناك ما يدهشني الآن أكثر من ان العادة جرت على أن يتمنى زواري لي طول العمر ، ولست أعرف ماذا أفعل بهذا العمر الطويل ٠ لقد كتبت كل ما نفسي أن أكتبه ، وأولادي صبيانا وفتيات قد كبروا وتزوجوا ، فلست أعرف لماذا أعيش ، ولكنني أعيش لان نهايتي لم تحن بعد ، وهذا هو الدليل الذي ليس بعده دليل على هذه القوة الخفية التي تهيمن على الحياة والموت وليس لارادة الانسان ـ أي انسان مهما كان شأنه ـ سلطان على الحياة أو الموت، ان بعض قصيري النظر يتصورون أنه سيكون بقدرة الانسان يوما ما عن طريق العلم ان يدرك أكثر ممن سبقوا شيئا عن سر الحياة والموت ، وعلى الرغم من ان الانسان ليس له ان يتكلم عن المستقبل وليس له بصفة خاصة ان يقطع بامكانية شيء أو عدم امكانيته ، ومع ذلك فانني أجزم وأنا مقدر لمسئوليتي، ان سر الحياة والموت سيظل مغلقا أمام الانسان الى الابد ٠ ولا فكاك من التسليم بأن أمر الحياة والموت سيظل بيد هذه القوة العلوية التي تعرف وحدها لماذا نحيا ونموت ، ومتى نحيا ونموت ٠

موقف الانسان من الموت لم يتغير :

بقي ان أفسر للقاريء الاساس العلمي الذي بنيت على أساسه هذا القطع والجزم بأن الانسان مهما طال به الزمن فسيظل جاهلا هذا السر

الرهيب لماذا نحيا ونموت ، ومتى تجيء الحياة ومتى تنتهي •

انظر الى أي اختراع حولك من مخترعات الانسان وانظر الى الشوط الطويل والطويل جدا الذي قطعه هذا الاختراع حتى وصل الى صورته الحالية •

انظر الى احدى السفن من عابرات المحيط انظر اليها وهي أشبه بالمدينة العائمة منها بالباخرة، كيف تحتوي على الملاعب والسينمات وفروع البنوك، فضلا عن حجرات النوم وصالونات الطعام والاستقبال ، وقارن ذلك بأول قطعة خشب عومها الانسان على سطح الماء ، تدرك الشوط الذي قطعه الانسان منذ خمسين ألف سنة ، انظر الى قطارات السكك الحديد وكل ما يسير على عجلات كالدراجات والموتوسيكلات والسيارات واللوريات والاوتوبيسات الضخمة ، والفخمة جدا والتي أصبحت تنقل المسافرين عبر القارات ، وعد بالذاكرة الى ان ذلك كله قد انبثق من فكرة العجلة التي كانت هي أول خطوة في أول خطوة في هذا النوع من وسائل المواصلات ، تدرك مرة اخرى الشوط الطويل الطويل جدا الذي قطعه الانسان منذ كان انسانا • وهل انت في حاجة بعد ذلك كله لاشير لك الى معجزة الطيران والشوط الذي قطعه الانسان في هذا الميدان وما بلغه في الراديو والتلفزيون والطاقة النووية التي أصبح بقدرة الانسان عن طريقها ان يمزق الكوكب الارضي كله ، وأخيرا وليس آخرا الصعود الى القمر والسير على ظهره بالسيارة ، وهذا كله يشير الى الشوط الطويل الذي قطعه الانسان فما كان في الماضي يعزى الى الجن والعفاريت او يدور في الخيال أصبح هو واقع الانسان الذي يمارسه في حياته اليومية ، ومع هذا كله فان الانسان يقف من قضية الحياة والموت في نفس النقطة التي كان الانسان الاول واقفا فيها وليس أدل على ذلك من هذا الحادث الذي أشرت اليه فيما سبق حادث موت الرواد الثلاثة الروس بعد قيامهم برحلة باهرة داروا فيها حول الارض أياما وأسابيع ، وفي لحظة وصولهم الى الارض وجدوا موتى ، وليس المهم أنهم ماتوا ، ولكن المهم ان الروس بكل علمهم عجزوا ان يعرفوا متى ماتوا بالضبط وكيف ماتوا ، واخيرا خدعوا أنفسهم بتصور سبب للوفاة ، مع ان ذلك مجرد فرض •

وهكذا يقف الانسان كأسلافه في كل زمان ومكان جاهلا كل الجهل سر الموت ومتى يجيء ولماذا يجيء • واذن فنحن في حدود التقدير العلمي عندما نقيس المستقبل على ما حدث في الماضي فنجزم ان الانسان لن يدرك سر الموت •

لا شيء وراء الموت :

ويزعم الماديون ان لا شيء وراء الموت وان هي الا حياتنا الدنيا ، ثم لا شيء • وهذا كلام ان صح يبطل كل عمل واجتهاد وتفنن فما جدوى اي جهد ما دام الانسان كل انسان سينتهي الى لا شيء ، ان اللوثة التي طرأت على عقول بعض الشبان في المجتمعات المادية ، فجعلتهم يكفرون بكل القيم ويتمردون على كل أوضاع المجتمع حتى ليقتلون لمجرد التسلية وقطع الوقت ، والذين لا يقتلون يعيشون في غيبوبة أكثر الوقت ، وعندي ان هذا تطبيق منطقي لتصور ان ليس وراء الحياة شيئا والحديث عن العمل للاجيال المقبلة التي لم تولد بعد حديث مغرق في السخافة ان يشقي الانسان ويتعذب ويتألم من أجل ما لم يوجد بعد •

ماذا يقول العلم :

والآن فلننظر ماذا يقول العلم في هذه القضية • ان العلم أصبح يقول ان المادة لا تفنى ثم زاد على ذلك وقال ان الطاقة لا تفنى كذلك ، ثم قال في تحديد أدق ، ان مجموع المادة والطاقة لا يفنى أو بالأحرى هو كم ثابت • ولما كان الانسان لا يعدو أن يكون مادة وطاقة ، فانه لا يمكن بالمقاييس العلمية البحتة ان يفنى حقا ، قد تتغير الصورة والكيفية ، ولكن الجوهر يظل باقيا من غير شك •

الخوف من المجهول :

فلعلك ترى من هذا ان الموت لا يخيف الا لأنه مجهول ، فلم يحدث ان عاد أحد من الموت ليحدثنا عن تجربته ، والا فلو حدث هذا لأصبح الموت حبيبا الى النفس كأي رحلة يقوم بها الانسان ، وأعود لما بدأت به من انني أصبحت أغبط أي انسان مات وأصبح مجرد ذكرى ، فأنا بما ركب في طبعي من تشوقي لكل مجهول أحب أن أجتاز عتبة هذا المجهول

وأن أصبح مجرد ذكرى • ان كتبي التي لا تقرأ الآنسوف تقرأ، وتاريخي الذي أسدل عليه ستار النسيان سوف يبعث أولا يبعث على حـد سواء ، والمهم انني أريد أن أخلص من محنة الحياة ، انني أصبحت أعيش في انزعاج مستمر ان يصاب بعض من أحب بسوء فضلا عن ان يموت وأصبحت أرى أن أسوأ ما يمكن الآن ان يصادفني في الحياة هو أن أظل حيا ، ومن هنا فقد أصبحت أغبط كل من مات ، فليذكر هذه الحقيقـة أهلـي وذوي ، فليذكروا عندما يروني أمامهم ميتا انني وصلت في النهاية الى ما أريـد • لا أحب بل وأنكر هذه المظاهرات التي تحدث عقب الموت ، لا أحب ان يرتفع صوت بالصراخ والعويل ، لا أحب أن يكتب أهلي نعيا لي في الصحف ويحددوا موعدا لجنازتي ، بل أحب ان ادفن في صمت وان لا يشيعنـي الى مثواي الاخير الا من تشاء الصدفة البحتة ان يكون موجودا ساعـة وفاتي ، وقد كنت أوصيت ان ادفـن الى جوار مصطفى الوكيل وما زلت أتمنى ذلك ، على ان الكلمة الأخيرة في ذلك كله لزوجتي التي أرجو أن يكرمني الله بأن يجعل يومي قبل يومها •

* * *

- ٩ -
هذه الحياة

أليست هي نسيج من كل شي

من الشر مثل ماهي من الخير

هذا معنى يستولي على كل فكـري ولا أستطيع الفكاك منـه ، وتحبسني معه التأملات بالليل والنهار ، وكلما حاولت الابتعاد عنه عدت اليه بقوة اكثر من ذي قبل ولننظر الى الانسان كوحدة باعتباره خليـة المجتمع الذي يتألف منه ، لقد اعتدنا أن نتحدث عن جسم الانسان باعتباره أنه يتألف من اجزاء شريفة أو هامة ، وأجزاء أخرى ليست كذلك ، ولكنه مجرد قول سطحي لا تعمق فيه ، فجسد الانسان كل واحد، وهو يقوم على جزء منه مهما صغر ومهما حقر . أي انسان لا يعتبر بصره أغلى من كـل شيء ، ومع ذلك فلو قعد عن الحركة لما أغناه بصره شيئا ، وخـذ أحقـر شيء في الانسان وأقذره وما اعتدنا ان نشمئز منه وان نحاول اخفاءه قدر الاستطاعة ونعني به عملية (التخلص من الفضلات) هـل يمكن للانسان ان يهنأ بالحياة الا عن طريق انتظام هذه العملية ، الا تتعطل الحياة كلهـا اذا تعطلت هذه العملية وهذه الفضلات التي تعافها النفس ، أليست هي أثمن شيء بالنسبة للزراعة التي هي قوام الحياة البشرية ، ومعنى ذلـك ان كل عنصر حتى النفايات ، مفيد بل وضروري لاستمرار الحياة. وعندما ننظر الى التكوين الانساني فنرى جسد الانسان يتألف من ملايين الملايين من الخلايا ، خلايا من كل صنف وطراز من حيث اللون ومن حيث الحجم ومن حيث التكوين ومن حيث الوظيفة ولكنها كلها تؤلف الجسد البشري، واذا تعطل بعضها فليس يعلم سوى الله ماذا تكون العواقب ولذلك فان

آخر صيحة في عالم الطب هو الأقلال قدر الطاقة من تناول الادوية وترك الأمور بقدر الامكان للطبيعة لتقوم بعملها المتوازن في سائر الاتجاهات ، لا أن تقوى بعض الخلايا على حساب البعض الآخر •

وليس المجتمع الانساني في مجموعه سوى انسان عملاق يتألف من مجموع خلاياه وهي أفراد الجنس البشري •

انظر الى أي مدينة ترى نفسك امام جسد انساني كبير • فالشوارع والطرقات هي الشرايين والاوردة ، وأنابيب المياه هي الشعيرات التي تحمل الحياة حيث سارت • وأسلاك الكهرباء والتلفون هي الاعصاب التي يحس وينفعل معها الكائن العملاق • وتنصب المأكولات والاطعمة كل يوم الى المدينة انصبابا ، وتخرج منها كل يوم مع المجاري ، عمليات ووظائف وأجهزة كوظائف واجهزة الفرد الانسان العادي ، والاعمال المختلفة لازمة لسير المجتمع لزوم أي عمل آخر ، فلو تعطلت المواصلات ، كما لو تعطلت اعمال النظافة فان المجتمع يختل بل قد تقف الحياة كلها ، انظر الى هذا العمل الذي لم تفكر فيه يوما وهو توقف أعمال النظافة في الطرقات ، فان ذلك سرعان ما يؤدي الى انتشار الجراثيم والميكروبات مما يؤدي الى انتشار الاوبئة فالهلاك •

من الأعمال المادية الى المعنوية :

واذا تبين لك الآن أن حياة الانسان والجماعة كلها متوقفة على القيام بكل ما تعارف عليه الانسان من أعمال ووظائف ، فتعال ننتقل من الماديات الى المعنويات •

ممن يتألف المجتمع ؟ انه يتألف من فلاحين وعمال وموظفين • ولنبدأ تحليلنا من القاع ، جمهرة عظيمة من المجتمع تقوم بعمل الجيش والبوليس والمحاكم • وهذه الفئات الثلاث تقوم لدفع ما تسميه شرا ، فالجيش لدفع العدوان الخارجي ، والبوليس لدفع العدوان الداخلي ، والمحاكم بكل ما يتبعها من قضاة ونيابة ومحامين ، وحراس سجون ، فكل هذا يقوم على أساس وجود الجريمة والمجرمين فلو محي العدوان من مجتمع على مجتمع الجريمة وزالت من الوجود لانمحى الجيش والبوليس والمحاكم وكل ما يتصل بها من أعمال ووظائف لازمة لها •

وانظر بعد ذلك الى المشتغلين بفن الطب والعلاج ، انظر الى المستشفيات وتوابعها ولواحقها ، ومصانع الادوية التي تنتجها ، والصيدليات التي توزعها ، فلو زال المرض لزال ذلك كله ، بل لتوقفت هاتان العمليتان الكبريان ، وأعني بهما صناعة البناء وصناعة الغزل والنسيج • فهاتان الصناعتان وهما أقدم الاعمال التي قام بها الانسان قد أريد بهما المحافظة على الصحة ودفع الامراض ، ولنصل الآن الى قمة السلم ، ونعني بذلك الانتاج الزراعي ، فالجوع والجوع فقط هو ما حفز ويحفز الانسان على الزراعة أي أن كل النواقص المادية والمعنوية هي الحافز على النشاط الانساني انظر الى جموع الوعاظ والمرشدين والهداة ، انظر الى المعلمين والمربين فهم رد الانسان على الجهل ، وعلى الانحراف ، والخلاصة ان كل ما في الدنيا مما نكره ومما اصطلحنا على تسميته بالشرور فيبدو أنه لازم لاندفاع تيار الحياة ، وحياة بغير شرور ونواقص لا تعود الحياة التي نحياها •

ماذا نعمل اذن ؟

ويصبح السؤال الآن اذا كان الامر هو ما ذكرت ، فهل معنى ذلك ان نوقف كل سعي في سبيل الاصلاح وكل ضروب الخير ؟ من الناحية النظرية العقلية هذا هو ما يؤدي اليه النظر ، ولكن من الناحية العملية فلا يمكن ان يتوقف شيء أبدا فما دام المجتمع الكبير هو كجسم أي انسان فهذا الجسم يقوم على التوازن وعدم زيادة عنصر على آخر والا اختل التوازن ومن هنا يبدو لي ان الحياة بالفعل نسيج من كل شيء من النواقص والزوائد ، مما نسميه خيرا ونسميه شرا ، مما نسميه فضائل ومما نسميه رذائل ، وعلى هذين العنصرين معا تقوم الحياة ، وكما يوجد في داخل الجسم خلايا لتقوم بهذا العمل أو ذاك • فكذلك الافراد كل ميسر لما خلق له ، فثمة اشخاص يعملون على كل ما اصطلح البشر على تسميته

بالخير ولن يستطيعوا عمل غير ذلك وثمـــة اشخاص يعملـــون على مــــا اصطلحنا على تسميته بالشر ولن يستطيعوا فعل غير ذلك ، ولكن فليهون كل انسان على نفسه ، فالحياة هي الحياة منذ كانت وما بقيت كائنـــة .. مزيج من كل شيء ولا تستغني عن شيء كبر أو صغر جل أو حقر ، اطلـــق عليه اسم فضيلة أو رذيلة ،اعتبر خيرا أو شرا، فالكل لازم والكل ضروري لاندفاع الحياة وهذا هو سرها الرهيب ولغزها المحير .

التكوين والفساد والتناقض

كسر للحياة

ولم يفت ارسطو منذ الوف السنين طبيعة الحياة كما شرحناها ، فكان من أوائل الذين قالوا ان الطبيعة والحياة من عناصرها تقوم على التكوين والفساد ، والتركيب والحل فكل شيء يتكون ليفسد ، ويفسد ليتكون • ويركب لينحل وينحل ليتركب وتمضي الطبيعة وعلى رأسها الحيـــــاة من العنصرين معا فاذا لم يكن هناك انحلال فلا تركيب ، واذا لم يكـــن هناك فساد فلا تكوين وليس الفساد الا حالة تدفع الى التكويـــن ، ان الجزر يؤدي الى المد ، والشد يؤدي الى الارتخـاء والسالب يؤدي الى الموجب والعكس بالعكس ومن خلال ذلك تندفع الحياة ولقد كان كـــارل ماركس واحداً ممن قالوا ان الحياة تقوم على التناقض ولكنه تصور انه المتصور في لحظة من اللحظات ان يزول التناقض وهو وهم وقع فيه كـــارل ماركس لان الحياة كلها تتوقف اذا زال التناقض • ولقد بلغ التناقض أعلى درجاته في المجتمعات التي حاولت أن تطبق النظريـــة الماركسية ، ضربت الرقم القياسي في التناقض ، ففي مجتمع يتصور أنه سيتخلص من القهـــر والقسر بالتدريج اصبح القهر والقسر والكبت هو سمة الحياة الاشتراكية وفي مجتمع قام أساسا لتحسين أحـــوال العمـــال ، أصبح فيـــه العمـــال وكأسوأ ما كانوا عليه في يوم من الايام اذ حرموا من حق الشكوى التي هي طابع الانسان وذلك طبيعي فما كانت الحياة لتسير الا من خلال هـــذا التناقض والذي هو سمة الحياة ودافعها المحرك •

ان الانهار تجري لانها تنحدر من المرتفعات الى المنخفضات فلو كانت الارض مستوية لما كان هناك انهار وكذلك الشأن بالنسبة للرياح التـــي تتحرك من الضغط العالي للضغط الواطي وهكذا بقية الظواهر الطبيعيـــة بدون استثناء ، ان أي موجة في الطبيعة ابتداء من الموجة المائية والهوائية

والصوتية والضوئية ، ليست سوى الحركة ما بين تخلخل وتكاثف واللطيف انه بين كل موجتين حيث لا تخلخل ولا تكاثف فلا يكون ثمة شيء . انها حالة لا يمكن وصفها أو تعريفها أو تحديد مكانها ولكننا نعلم علم اليقين أنها موجودة ففي نهاية الجزر ينشأ المد وفي نهاية التخلخل ينشأ التكاثف وهكذا ومن هنا كانت النهايات في أي اتجاه وفي أي حالة وفي أي لون واحدة دائما والتطرف في أي حالة يؤدي الى نقيضها على الفور .

ان الانسان لا يسمع الاصوات المعنة في الانخفاض والخفوت كما ان الاصوات الشديدة جدا تصيبه بالصمم فلا يسمع والانسان لا يرى في الظلام والضوء الشديد يبهره فلا يعود يرى ، والانسان لا يرى الشيء البعيد جدا كما لو اقترب الشيء من العين حتى اوشك على الالتصاق بها فلا ترى منه العين شيئا وهكذا .

التباس الايمان الشديد جدا بالكفر :

ولقد سمعنا عن شخصيات تاريخية أعدمت باعتبارها كافرة بينما يروي البعض عنهم شدة الايمان ولسنا نريد أن نذكر اسماء فنحن بصدد ظاهرة عامة لا ارتباط لها بشخص بعينه ، فثمة اشخاص لا يقفون عند حدهم وانما يحاولون استكناه حقيقة الله فتعشى عقولهم ويصابون بالانجذاب ويرون الله في كل شيء حتى يقول واحد منهم « ما في جبتي غير الله » . ويمضي بعضهم في تنزيه الله الى الحد الذي يصبح فيه مجرد معنى مطلق لا مفهوم له وهكذا يلتبس الايمان بالكفر ، ولذلك كانت القاعدة المتبعة ان خير الامور الوسط ، والفضيلة وسط بين طرفين ، فنحن نسمع ونرى ونتذوق ونحسن عندما يكون الامر — أي أمر — وسطا وليس طرفا . وهذا يعود بنا من جديد الى ما بدأنا به من ان نهاية كل شيء بداية نقيضه ومن هنا يلتبس الاثنين ببعضهما ويتشاكلان .

فالمبالغة في الصدق قد تؤدي في لحظة من اللحظات الى نفس المضاد التي يؤدي اليها الكذب كما لو سئل انسان عن مكان انسان قد اختفى لحقيقة واحدة يعتبرها الانسان في ظروف معينة خيرا وفي ظروف أخرى شرا مع ان العمل المادي واحد ، خذ مثلا عملية ازهاق الروح فهي من اكبر

الصدق وهو أكبر ما تعارف عليه البشر من فضائل ينقلب الى نقيضه تماما في بعض المناسبات .

اشنع صنوف التعذيب باسم الرحمة :

ولعل التاريخ لم يسجل اشنع من محاكم التفتيش التي انشئت باسم الرحمة المسيحية ولقد كانوا يحرقون من يحرقون رحمة وشفقة بأرواح من يحرقونهم والثورة الفرنسية التي اندلعت لتحقيق الحرية والمساواة اعدمت عشرات الألوف ظلما وعدوانا باسم الحرية، حتى قال قائلهم « أيتها الحرية كم يرتكب باسمك من الجرائم » وكذلك الشأن في أي ثورة سرعان ما تكون حربا ضد كل ما قامت من أجله ، وسرعان ما يصبح مشعليها أول وقود لها بعد حين ، ويلقون على يد الثورة أضعاف اضعاف ما قامت الثورة للخلاص منه .

النور والظلام :

ولقد قامت الديانة الفارسية القديمة (الزرادشتيه) على اساس الازدواج في الآلهة فثمة اله للخير (اهورامزدا) وآخر للشر (اهريمن) وكل ما في الكون من ظواهر متضادة تعود لواحد من هذين الاصلين . فالنور هو اهورا مزدا واهريمن هو الظلام ، ومزدا هو الحياة واهريمن هو الموت ، ومزدا هو الصحة واهريمن هو المرض ، ومزدا هو الخصوبة واهريمن هو القحط ، وهكذا ، ولكن بعد ان كان هذان الالاهان متوازيين تطور الفكر بعد ذلك الى ان مزدا هو الذي سينتصر في النهاية فلا يكون هناك الا قوة واحدة وهي مزدا أو الخير . ولقد بدأ العلم التجريبي الحديث على فكرة قيام الطبيعة على عنصرين اساسيين . المادة والطاقة وهو عود الى الثنائية من طريق آخر ولكن التطور العلمي الحديث سرعان ما كشف الحقيقة من ان الطبيعة كلها تقوم على عنصر واحد فالطاقة هي المادة في حالة انطلاق والمادة هي الطاقة في حالة انكماش وعلى الحالتين معا يقوم الوجود ، وهذا هو الشأن في كل شيء فانما هي حالات لحقيقة واحدة يعتبرها الانسان في ظروف معينة خيرا وفي ظروف أخرى شرا مع أن العمل المادي واحد، خذ مثلا عملية ازهاق الروح فهي من أكبر

الشرور ومع ذلك فازهاق الارواح يصبح هو المثل الاعلـى في حالـة الحروب ، كما ان الدولة تمارس اعدام المجرمين وهكذا . فالامور كلهـا نسبية بحسب ظروفها وملابساتها وهي خير في بعض الظروف وهي شرفي البعض الآخر وتبقى الحقيقة المؤكدة وهي ان الحيـاة نسيج من كل شيء ولا حياة الا على هذه الصورة التي نعرفها والتي هي مزيج من كل شيء .

* * *

- ١٠ -

الحياة تسير

كل حياة في جميع المستويات

بين اليأس والرجاء ، بين الخيبة والامل ذلك معنى كنت قد تحدثت عنه من قبل في حديثي عن « الحياة ألم » ولكني أعود اليه لزيادة وضوحه في تأملاتي وما أريد أن أقوله بسرعة ، ان حياة أي انسان مهما كان مركزه في الحياة، مهما كانت ظروفه وأحواله، مهما كان غنيا أو فقيرا، كبيرا أو صغيرا أيا كانت درجته في السلم الاجتماعي فان اسلوب الحياة واحد ومذاقها واحد وكل آثارها في النفس البشرية واحد ، وهي انها تتراوح بين اليأس والرجاء ، بين الخيبة والامل يستوى في ذلك أعظم العظماء ، وأحط انسان في المجتمع ، ان الانتصارات المدوية التي يحصل عليها ، اي قائد من القواد العسكريين أو السياسيين تتحول في حياتهم الى روتين يومي، كأصغر فلاح يذهب الى حقله ليزاول عمله ويوما يساء ويوما يسر ، ويوما يفرح ويوما يحزن ، ويوما لا يفرح ولا يحزن ، وعندما أقول يوما فانما أعني كل لحظة من لحظات النهار ، وأنها تتراوح وباستمرار بين النقيضين، ولذلك فقد أصبحت أسخر من كل حديث عن التقدم، وأنه لو حدث هذا الشيء أو ذاك فان الناس تصبح أكثر سعادة ، ولولا انني أخرج عن خط تفكيري لقلت أنهم يزدادون شقاء . وقديما تنبه لهذا المعنى الشاعر العربي فقال البيت المشهور :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

أما أنا فأقول أن ذا العقل يشقى والجاهل ايضا يشقى ، كل على حسب قدرته وفهمه وحظه ، فهذا أي ذو العقل يشقى عندما يرى اختلال

الاوضاع، وذو الجهل يشقي في بعض الاوقات من العوز والحرمان والمرض أو من غير ذلك .

العري في جنوب السودان

اذكر انني في رحلة الى جنوب السودان راعني ما وجدت عليه السكان من عري وحملت على الانجليز في كتاب « من وحي الجنوب » حملة شديدة وخاصة على ما ساقوه تبريرا لذلك من انهم هكذا سعداء ، وأشهد ان هذه وجهة نظري الآن مع استبدال كلمة سعداء بأنهم يحيون شأن أي كائن حي ، تتألف حياتهم مهما كان مستواها بين الضيق والفرج بين الشدة والرخاء بين البسط والقبض وقد أصبح الرقي اعلى درجات الرقي عند الاوروبيين والامريكان يتلخص في التخفف من اللباس الى درجة تقرب من العري ، على شواطىء البحار أولا وفي زمن الصيف خاصة ثم عملت وسائل التقدم الحديثة على تمكينهم من فعل ذلك في الشتاء . والذي لا جدال فيه انه لولا البرد والجليد الدائم في الطرقات والحاجة الضرورية لنوع ما من الملابس لكان العري التام هو اساس الحياة ، وعلى كل حال فمستعمرات العراة هي آخر مظاهر الرقي والتطور وهكذا يتلاقى الانسان البدائي العاري مع الانسان الذي انتهى بعد سلسلة من التعقيدات والتركيبات الحضارية الى نقطة البداية وهي العري ، وانا أريد بذلك ان أقول انها حياة واحدة لا تفاضل فيها .

من يريدون تغيير الحياة يحققون وجهة نظرهم :

ان كل ما يدور حولنا من نشاط في الحياة هو محاولة كل انسان ان يثبت ذاته من خلال نشاطه وكل ما يقوم به من عمل فوق ان يطعم نفسه ، هو مدفوع اليه دفعا ولا معنى له الا أنه هكذا يجب ان يعمل ان الذي لا مسكن له قد اعتاد ذلك وحياته تسير على هذا الاساس ولا يحس بأي نقص ما دام الاخرون لا مساكن لهم كذلك . انهم يقيمون في الخيام أو في بيوت من الشعر أو الجلد أو الصفيح ، أو يعيشون في قارب على سطح الماء كما في بعض البلاد ، وهم جميعا يعيشون كأي انسان آخر في اعظم قصر يمارسون كل الوان الحياة بحلوها ومرها ، الى ان

يجيء انسان يتصور ان هؤلاء في منتهى التعاسة ، فيردد ذلك ويظل يردده فتقوم الثورات لانتشال هؤلاء من البؤس ويرتكب في هذه الثورات ما يرتكب ، ثم لا تستطيع أن تفعل شيئا في يوم وليلة الا ان تشرع في بناء مساكن أحسن وبطبيعة الحال لن تستطيع ان تبني الا للبعض ، فيصبح البعض في مساكن والاكثرية في الخيام ، أو الصفيح ، أو القوارب ، حتى اذا أمكن بناء مساكن من غرفة واحدة لكل عائلة تكون الدنيا قد تغيرت بحيث يصبح ذلك منتهى البؤس ، وهكذا دواليك ، والحياة تسير في كل الاحوال وعلى مختلف المستويات لا فرق بين حياة وحياة الا أن يقارن من ليس عنده هذا الشيء أو ذاك بما يوجد عنده فيتصور أنه لو حصل على هذا الشيء لكان أسعد حظا فاذا حصل عليه تكون أحواله قد تطورت وزادت حاجاته وأصبح أكثر شقاء بالمقاييس الانسانية المعتادة ، وأعود الى تحديدي الدقيق من أنه لا شقاء ولا سعادة ولكنها حياة ومن هنا فكل حديث عن التقدم والتأخر فهو أحد مظاهر الحياة التي ستتم تلقائيا ككل مظاهر الطبيعة حيث تتكون السحب وتتراكم وتتحرك وكذلك الرياح والامطار والثلوج والليل والنهار والانسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة وحكمه حكم أي شيء آخر يدور وينتهي حيث يبدأ ، وقد تصور البعض أن الانسان يتقدم في خط مستقيم واراد كارل ماركس ان يعدل من هذا القول فجمع بين التقدم نحو الامام دائما والدوران في نفس الوقت ، فقال ان التقدم الانساني « حلزوني » أي انه يعود لنقطة الابتداء ولكن في مستوى أعلى ، والمهم عندنا ان الحياة في أي مستوى هي الحياة بكل مشاكلها ومتاعبها وأحزانها وأفراحها مهما تعددت الصور والاشكال وشرب الانسان الماء من (الزير والقلة) او (الفريجدير) وليس سوى غرير من يتصور ان الانسان عندما أصبح يشرب من الفريجدير أصبح أكثر سعادة من الامس . وكل الذي حدث انه كان يوجد بالأمس من عنده (زير) ومن ليس عنده ، واليوم أصبح يوجد من عنده فريجدير ومن ليس عنده ، وهذا يعيش وذاك يعيش ، وكلاهما يحسد الآخر على ما ليس عنده ، ولكن الذي لا شك فيه ان كمية المتاعب والقلق والاحزان والافراح واحدة في جميع الاحوال .

الحياة الانسانية تدور :

وأريد أن أقرر على خلاف أوهام كارل ماركس ، أن الحياة الانسانية تسير في دوائر وتنتهي دائما حيث تبدأ فحيث يجيء الانسان كل انسان من المجهول ، فهو يذهب الى المجهول وحيث يبدأ الانسان طفلا عاجزا فهو ينتهي اذا امتد به العمر بنفس العجز بحيث يحتاج أي شيخ عجوز الى من يتكفل بكل حاجاته كأي طفل رضيع • وقد جابهت هذه الحقيقة من يسمون انفسهم تقدميين ، فهربوا منها ، وراحوا يتكلمون عن الانسانية في مجموعها ، الانسان الفرد وهو مجرد كلام ولعب بالالفاظ لارضاء غرور المتكلم واشباع هوايته ، والا فاي تقدم في دنيا العلم يهم انسانا واحدا يتألم ولا يجد ما يخفف آلامه ، وأي عزاء في الدنيا كلها لمن هو جائع اذا كانت البشرية كلها فيما مر من الزمان وما هو آت من الايام متخمة من كثرة الاكل ، وان هذه الفكرة مهما قيلت أمامه بالليل والنهار وفي الاذاعة والتلفزيون والصحف والكتب ، لن تغير من الحقيقة المرة المؤلمة وهو احساسه بالجوع وكذلك الشأن في كل أمر من الامور فالاصل هو الانسان الفرد وما يحسه الانسان الفرد ويشعر به وكل حديث غير ذلك فهو هروب من مشكلة الحياة الحقيقية والتي عالجها البشر منذ كانوا بشرا ، عن طريق الايمان باله حي ، وان ستكون هناك حياة أخرى غير هذه الحياة بقوانين أخرى ونواميس أخرى ، هذا هو العلاج الأوحد لحياة الانسان وهو أن يؤمل في حياة أسعد وأرغد وليس هناك شيء سوى الأمل ما يقوي الانسان على مواجهة مشكلة الحياة وأنا مصر كل الاصرار على وصف الحياة بأنها مشكلة لا حل لها الا بالموت ، وهي مشكلة كل انسان ، لا يختلف فيها انسان عن انسان مهما تغيرت ظروفه وأحواله من جهل وعلم ، وغنى وفقر ، وما يصفونه بأنه تقدم أو تأخر ، رقى أو انحطاط حضارة ومدنية أو تخلف وانحطاط ان أغنى الاغنياء الذي لا توجد على موائده الا الديوك الرومي والفراخ وكل أنواع المحمرات والمشويات ، سرعان ما تعاف نفسه ذلك كله ويشتهي الطعمية والفول والمخللات الحريفة التي لا يأكلها سوى الفقراء ، والويل له اذا كانت معدته لا تقوى على هذه الاشياء فسيعيش ما بقي من حياته يحس

بالحرمان ويتحسر على الفول والطعمية تماما كما يتحسر اكلة الفـــول والطعمية على اللحوم والفراخ ، كل يحس بالحرمان لما ليس في حوزتـه أو بعيدا عن متناول قدرته ، عرفت رجلا عظيما قويا جميلا بكل جمـال الرجولة ، تتسابق النساء لنيل حظوته ، أما هو فقد كان دائم الحديث عن اشتهائه لامرأة فلاحة حافية القدمين المليئتين بالتشققات وأقذار الطريق ، وذلك لان نفسه عافت الغارقات في العطور والحرير والاسرة الناعمة ، ولا يحسبن انسان ، ان صاحبي هذا كان بدعة وانما كان انسانا بكـل خصائص الانسان يعتاد دائما على ما هو متوفر لديه ثم تعافـه نفسـه ، ويبحث عما ليس لديه •

الجماعات كالأفراد :

ولقد قلت فيما سبق : ان المفكرين ودعاة التقدم المزعوم ، قد هربوا من الحديث عن الفرد الى الحديث عن الجماعة تصورا منهم ان الحيـــاة الانسانية لا تدور وانما تتقدم ، وقد دفعهم الى ذلك ، كون حيـــاة الجماعات أطول وانهم وكل جيلهم الذي صدق أقوالهم سيموت قبـل أن ينكشف زيف ما قالوا به ، وطبعا كان ذلك كامنا في اللاشعور والا فقـد كانوا يؤمنون بما توهموا به من فكرة التقدم •

الحضارات التي زالـت :

ان البلاد التي كانت يوما ما ذروة الحضارة ، أصبحوا يتكلمون عنها باعتبارها متخلفة ، فمصر والصين والهند والعرب هم اليوم متخلفـــون يحاولون أن يلحقوا ما يسمونه ركب الحضارة وعندما خرجنا الى الحياة (اعني جيلنا) كانت أوربا الغربية (انجلترا وفرنسا وهولندا وألمانيا) هي ذروة العلم والحضارة والرقي ، والقوة بطبيعة الحال ، ولقد زرت باريس عام ١٩٣٠ باعتبارها عاصمة الدنيا ، ولا تنافسها في زعامة العالم الا لنـدن والمناقشات والمحاورات تجري في العالم كله أي البلدين اعظم ، واليـوم أصبحت باريس ولندن وكل أوربا الغربية تعتبر متخلفـة بالنسبة لامريكا وانتقل مركز الثقل الى واشنطون ونيويورك وموسكو وفي آسيا الـــى

بكين • وليس هذا سوى البداية ، وستعود أوربا الغربية يوما ما الـــى مــا كانـــت عليـــه •

قلة النسل وكثرة النسل :

على ان ظاهرة واحدة كفيلة باظهار الحياة على حقيقتها وأنها مشكلة في جميع صورها وأحوالها فعندما ولدت في مطلع القرن العشرين كانت المشكلة الحضارية الكبرى هي قلة النسل ، وكانت الدول الكبرى المتقدمة تشكو من قلة النسل وتبذل قصارى جهدها للاكثار من النسل ، والجوائز والمزايا والمنح تعطى لمن ينجب أكثر وعشت حتى رأيت في منحدر القرن ان مشكلة العالم الكبرى هي كثرة النسل ، وكل مظاهر الرقي والتقــدم وآخر ما انتهى اليه العلم يتلخص في حل هذه المشكلة بالاقلال من النسل، وأصبح الاكثار من النسل هو آية التخلف ، وهكذا تنتقل المشكلة مـــن النقيض الى النقيض ولكنها تظل مشكلة ، يتشدق بها المتشدقون ويتعالى بها صراخ التقدميين والمصلحين ، وعلم الله انها ليست مشكلة فوق العادة، فكل انسان يعيش سواء كان عنده ولد أو عشرة أولاد، وهو ضجر في كلتا الحالتين حينا ورضى في حين آخر •

العدمية والوجوديـــة :

ولم يفتني وأنا أكتب كــل ما سبــق ان يتهمني انسان بالسفسطة والتشاؤم وان يكون كل ما كتبته من وحي المرض الذي أصابني ، فأمـــا ان ما كتبته هو من وحي المرض ، فتلك حقيقة لا شك فيها ، وأما أنه تشاؤم أو سفسطة فقد حاولت أن أقول ذلك لأخي ابراهيم الزيادي ، فقلت لــه وكان قد طالع بعض الفصول : انها افكار عدمية ، فاذا به بألمعيتـــــــه يحاججني بما طالع في هذه الفصول ، من أن كــل شيء يلتبس بنقيضه ، فقال : وما الفارق بين العدمية والوجودية كلاهما ضد الآخر ولا وجـــود لأحدهما الا بوجود الآخر •

وثمة تعليق آخر قـــال به أخي محمد متولي عوض ، عندمـــا طالع في هذه التأملات تساؤلي عن السر في بقائي على ظهر الحياة، فقال : لتكتب لنا هذا الكلام •

* * *

الله

والزمان والمكان

ويكون من نوع الخداع ان تخلو التأملات أي تأملات من حديث عن الله مع أنه منذ كان الانسان انسانا فهو الموضوع الاساسي لأي تأمل. وأريد بداءة ذي بدء الى أنني هنا لا أكتب موعظة ولا استهدف أي شرح لتصورات دينية فكتبي الدينية كثيرة ومشهورة ، ولكنني هنا أتأمل بالفكر سابحا حيث يسبح الفكر .

الله ضرورة عقليه :

وأول ما يواجه العقل ان وجود الله باعتباره قوة لا حد لها ولا أول ولا آخر ، هو شيء يفرض نفسه على العقل فرضا بحيث اضطر بعض الفلاسفة الملحدين المؤمنين بالعقل ان يقرروا ان الله ضرورة عقلية لا فكاك منها . فالعقل يرى أنه ما من شيء الا وهناك ما هو أقوى منه وأعلى وأكبر وأكمل فالشيء الكبير هناك ما هو أكبر منه وأكبر وأكبر وأكبر وهكذا الى ما لا نهاية ، ولكن العقل لا يتصور ولا يمكن أن يتصور شيئا لا نهاية له واذن فلا بد أن القوة والقدرة والعظمة والكمال تنتهي الى موجود من غير نوع بقية الموجودات تنتهي عنده الامور ويكون هو المثل الاعلى لكل أمر من الامور تبدأ منه وتنتهي اليه .

وبالمثل يرى العقل ان كل متحرك لا بد له من محرك او بالاحرى ان لا بد لكل شيء من سبب أو لكل معلول من علة وتتسلسل الاسباب والعلل الى ما لا نهاية ، ومرة أخرى لا يستطيع العقل أن يتصور حكاية اللانهاية هذه ، واذن فلا بد ان تقف الامور عند سبب يكون هو سبب نفسه .

هذا هو حكم العقل على مر العصور ، ويخطىء من يتصور العصر الحديث استثناء من ذلك فالماديون يسمون سبب الاسباب وعلة العلل والمثل الاعلى لكل شيء هو الطبيعة وتكون الطبيعة عندهم أو المادة هي

القديمة الازلية الخالقة الفعالة التي تبدأ منها كـل الاشياء وتنتهي اليها .

أيـن الخـلاف :

فالعقل البشري لم يستطع الفكاك في كل زمان ومكان من الاقـرار بوجود قوة علوية مسيطرة ومهيمنة وخالقة وإنما وجـد خلاف حول كنه هذه القوة أو بالاحرى صفاتها لان العقل مسلم في كل الاحوال أنـه أعجز من أن يدرك كنهها ، وقد دار الخلاف الفكري البحث حول السؤال عما اذا كانت هذه القوة عاقلة أي حكيمة تهدف نحو غاية ما ، اما انهـا مجرد قوة طبيعية تخبط خبط عشواء وصدر عنها الكون لمجرد الصدفة . وباستطاعتنا بطبيعة الحال ان نسائل القائلين بالرأي الاخير ، اذا كانـت الطبيعة أو المادة ، أو سموها كما تشاؤن ، اذا لم تكن عاقلة بمعنى حكيمة وأنها تتغيا غاية ، فمن أين جاء الإنسان بهـذا العقل والتفكير ، ولماذا كان الانسان هو أعظم دليل على وجود عقل أعظم انحدر منه العقل البشري ، تماما كالعقول الايلكترونية الحديثة فهي على الرغم من انهـا أصبحـت تقوم بما يشبه المعجزات ، فهي في نهاية الامر احدى ثمرات العقل الانساني فهي دليل عليه ، كما ان العقل الانساني هو دليل العقل الاعلى والاعظـم لانه في عالم الطبيعة البحتة ، وفي العلوم الممعنة في المادية تسليم واجماع على ان لا شيء ينمو من فراغ ، فكل شيء في هذا الوجود انما هـو فرع من شيء سابق عليه ، أو محصلة بضعة عناصر أو عوامل سبقتـه كذلك ، والمهم ان لا شيء كائنا ما كان يمكن ان ينشأ من لا شيء ، ذلك بعض ما يمكن ان نقوله لمن يحاولون اثبات عقل للانسان ثم ينكرون وجود عقل أعظم لهذا الكون بما فيه الانسان .

الوجدان هو العامل المرجح :

ولو صرفنا النظر عن هذه الحجة الاخيرة يكون عندنا كما قدمنـا تصوران للعقل البشري الاول ان القـوة الخالقة لهـذا الكون والمهيمنة والمسيطرة عليه عاقلة أو حكيمة ، واما أنها مادة مجردة تخبط خبط عشواء وكتاب الكون من حولنا يمدنا بالامثلة التي تنطق بالحكمة في كل شـيء ومع ذلك فباستطاعة العقل ان يستخرج من كتاب الكون ما يجعله يتصور

أن الطبيعة لا تهدف لشيء ، ومنتهى ما يقال ان هناك تصورين لا يستطيع العقل كل عقل أن يغلب أحدهما على الآخر وهنا يأتي دور الوجدان وهو العنصر الثاني الذي تقوم عليه حياة الانسان ، ولسنا نريد ان ندخل في تفاضل بين العقل والوجدان او بين الفكر والمشاعر فالحياة الانسانية تقوم عليهما كلاهما فكما أنه لا حياة اذا تعطل القلب ، فكذلك لا حياة اذا تعطل المخ واذا كان العقل يصدر احكامه على ضوء ما يتلقى من مشاعر ، فان المشاعر نفسها بعض مدرعات المخ ، ومن هنا قلنا أنه لا محل للتفاضل بين الفكر والوجدان فعليهما كليهما تقوم حياة الانسان ، وبخصوص القضية الفكرية التي نحن بصددها ونعني بها صفات القوة الخالقة فحيث يتأرجح العقل البشري فقد ثبت الوجدان البشري في اجماع باهر على وجود هذه القوة الخالقة واتصافها بالحكمة والكمال • فمنذ كان الانسان انسانا وهو يتلمس هذه القوة الاعلى منه ، وقد تخبط في تصور هذه القوة واختلفت الصور باختلاف الازمنة والامكنة ، ولكن الجوهو كان وسيظل واحداً وهو التسليم بوجود قوة غيبية تعلو الانسان والكون كله وتتصرف بما تشاء وتختار هذا الشعور الوجداني يجمع عليه البشر لا فرق بين أجهل الجهال وأعلم العلماء وحتى الذين قد يتمردون بفكرهم في فترة من فترات حياتهم سرعان ما يستسلمون اذا امتد بهم العمر ويصبحون أكثر الناس ايمانا بهذه القوة الغيبية وينقلبون الى النقيض فيهدرون كل عقل وفكر ، ولقد رأيت بنفسي نفراً من هؤلاء تمردوا بكل قوة في شبابهم على القوة الغيبية العلوية وبنوا كل شهرتهم ومجدهم على هذا الانكار والتمرد ثم انتهوا في شيخوختهم الى كتلة ايمان والجماعات في ذلك كالافراد فالتاريخ يحدثنا ان بعض الجماعات قبلت تحت ظرف من الظروف ان يتحدث باسمها ويتصرف في شئونها بعض من يجاهرون بالتمرد على هذه القوة الغيبية وينكرون عليها الحكمة ، ولكن الجماعة سرعان ما تعود لرشدها وتزداد تمسكا بمعتقداتها الغيبية ، حتى في الدول التي اتخذت المادية أساسا لحكمها وشعارا لمنهاجها نراها تعود وهي في أوج ازدهارها الى التسليم بأنه من العبث انتزاع الايمان بالغيب من قلوب الناس فيتركون لهم حرية التدين أو بالأحرى الايمان بالقوة العلوية الخلاقة المهيمنة

المسيطرة في خفاء وبنظرة فاحصة الى الزمان والمكان يسهل على العقل الاقتراب من تصور قدرات هذه القوة الخالقة .

الزمان والمكان ما هما :

ليس للزمان أو المكان أي معنى الا في تصور الانسان أما بالنسبة للطبيعة للقدرة الخالقة فهما شيء لا يمكن أن يكون لهما معنى ، بل شيء لا وجود له ، انهما من خلق الانسان أو بالاحرى نتيجة لعجز الانسان وقصر حياته ، فالانسان لانه يموت بعد فترة معينة فقيرا اصطنع مقياسا يقيس به هذا العمر فاتخذ ظاهرة دوران الارض حول نفسها أمام الشمس وما يتولد عنها من ليل ونهار متعاقبين ليعدّ بهما ويقيس أما لو كان الانسان خالدا لا يموت لما كان لهذا الحساب أي جدوى وبالتالي أي معنى ، بل لا وجود أصلا وهذا هو عين ما يقال عن المكان فهو بدوره شيء من تصور الانسان وقد جاء نتيجة عجزه وضعفه فهذا قصير وهذا طويل وهذا سهل وهذا وعر وهذا قريب وهذا بعيد وهذا منخفض وهذا مرتفع وهذا سخن وهذا بارد وهذا سائل وهذا جامد ، وهي كلها مشاعر وأحاسيس نشأت من قدرته على هذا الشيء وعجزه عن ادراك شيء أو لحاقه به أما لو كان قدرته مطلقة لما كان لذلك كله أي معنى ، فليس الا حياة الانسان القصيرة وضعفه وعجزه هما اللذان خلقا الزمان والمكان وليس أدل على ذلك من انه أصبح يقول كلاما فارغا لا يعدو ان يكون مجرد كلمات يخطها على ورق ويعتبرها من المسلمات مع انه لو تمعن فيها لما استطاع ان يتصورها عقله ولاصبح كل حديث عن الزمان والمكان شيئا مضحكا ، فنحن نعلم ان الضوء يسير بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية أي أنه يسير في الساعة الواحدة ٣٠٠٠٠٠ × ٦٠ × ٦٠ وفي اليوم الواحد يجب ان يضرب هذا الرقم في ٢٤ ولكي نحصل على ما يقطعه في السنة يجب أن يضرب هذا يوما ولك بعد ذلك ان تتصور مسافة نجم يقال لك انه يبعد عن الارض سنة ضوئية ثم يقولون بكل بساطة وهناك نجوم تبعد مائة سنة ضوئية ثم ألف سنة ثم ألف ألف سنة وهكذا ، ومن هذه النجوم يوجد عدد يقدر بآلاف آلاف الملايين وبطبيعة

الحـال لـم تحـص ولا يمكـن ان تـحص ، وفي ذات الـوقت يقال لك ان هناك نجما يساوي الارض ملايين المرات ، وان هذه النجوم كلها ليست الا ذرات في المجرات والسدم التي ليست بدورها الا ذرات في الفضاء وكما قلت لك ليس ذلك كله الا كلمات تقال لتشبع غرور الانسان في أنه يعلم ، مع انها لو صحت فان العقل يضيق بمدلولها ، فالزمان والمكان ليس الا تصورا انسانيا انبثق كما قدمنا من عمره القصير وقدرته المحدودة .

القدره المطلقه :

أما عندما نصل الى القدرة المطلقة فلا معنى للزمان أو المكان وتصبح شيئا لا وجود له فلا أول لها ولا آخر ولا فوقية ولا تحتية ولا ماض أو حاضر فضلا عن مستقبل ، انه وجود واحد وقدرة واحدة واستيعـاب لكل شيء بدون حركة أو انتقال أو تغير وانما هو وجود دائم وقوة أبدا ، واللطيف ان هذا الذي ينتهي به التأمل العقلي المجرد هو ما ألهمه الانسان منذ كان انسان .

تمت والحمد لله

الروضة ــ الاربعاء ١٢/٤/١٩٧٢ .

فهرس